

عرفان محمد حمّور

المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الاسلام

مؤسسة الرّحاب الحديثة
بيروت - لبنان

المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الاسلام

كانت العربُ أكثرُ أُممِ العالمِ دِقَّةً في اختيارِ أسماءِ شهورها، لِمَا فيها من دلالةٍ على طبائعِ الأزمنة التي حُدَّت فيها . .

فقد حُدَّ مثلاً شهراً صَفَرٌ: المحَرَّمُ والآخِرُ، في زمن الخريف، وهو زَمَنٌ تَصْفِرُ فيه منازلهم منهم، لخروجهم عنها إلى البادية . . . وحُدَّ شهراً ربيع: الأوَّلُ والآخِرُ، في زمن الشتاء، وهو الزمنُ الذي كانوا يعودون فيه من البادية، لِيَرْتَبِعُوا في منازلهم، فالارتبَاعُ هنا الإقامةُ، وهما كشهري كانون: الأوَّلُ والثاني عند أهل الشام، سُمِّيَا بذلك من الكَنِّ، وهو جذر مشترك بين اللغات العربية (السامية)، ومن معانيه: الإقامةُ والبيثُ والمَوْقِدُ والمُصْطَلَى . . .

وقد تبيَّن من استِقراء أخبار العرب، أنهم كانوا يعتدُّون في الفصول الطبيعية وعدد السنين بدورة منازل القمر، وفي حساب الشهور بدورة القمر نفسه، والمنازلُ للقمر كالبرُوج للشمس، أي أنهم كانوا يَتَّبِعُونَ تقويماً شمسياً قمرياً . . ولذلك كانت شهورهم لا تدور في كلِّ الفصول، وكانت مواسمهم تقوم في أوقاتٍ ثابتة تقريباً من الفصول الطبيعية، سواء في ذلك مواسمُ الحجِّ والعبادة والصوم والأسواقِ الكُبارِ والأعياد . . .

مؤسسة الرجا ب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع



عنوان الكتاب
المواسم وحساب الزمن
عند العرب قبل الإسلام
المؤلف: عرفان محمد حمّور

الناشر والموزع
مؤسسة الرّحّاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
المدير المسؤول: أحمد فوّاز
هاتف: ٠٣/٣٥٩٧٨٨
ص.ب: ١١/٣٨٤٧
بيروت - لبنان

التنفيذ والإخراج
مؤسسة غُور بَرس
هاتف: ٠٣/٦٣٣٥٩٨
العنوان: البربير - بناية كاملة - ط ٤
بيروت - لبنان

تصميم الغلاف والفهارس الفنيّة
د. هداّل عرفان حمّور

الطبعة الأولى ٢٠٠٠
جميع الحقوق محفوظة

عرفان محمد حمّور

المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الاسلام

مؤسسة الرحاب الحديثة
بيروت - لبنان

الفهرسُ التفصيلي لمحتويات الكتاب

٧	مقدمة: المواسم والأزمنة (الفصول) الطبيعية
٣٤ - ١١	الفصل الأول: الأصل في حساب الزمن عند العرب
١١	المطلب الأول: علم الفلك والنجوم عند العرب
١٩	- منازل القمر. عرف العرب أن المنازل للقمر كالبروج للشمس
٢٢	- جدول منازل القمر وأيام مطالعها ومساقطها
٢٤	المطلب الثاني: مذهب العرب في تقسيم الزمان - الساعة - اليوم - الشهر - السنة
١٠٦ - ٣٥	الفصل الثاني: شهور العرب ومواقعها من الفصول الطبيعية
٣٥	المطلب الأول: شهور العرب - أسماؤها ومعانيها ودلالاتها على الفصول الطبيعية
	● شهر صفر، صفر الأول (المحرم)، وصفر الآخر؛ أضيفا إلى الصفر
٤٠	لخلو ديارهم منهم في الخريف بارتحالهم عنها إلى النجعة في البوادي والأرياف
	● شهر ربيع، الأول والآخر؛ زمن أربعينيات الشتاء القاسية والعودة عن
	النجعة للارتجاع في المنازل، أي للإقامة بها. يقابلهما في السريانية شهر
٤٦	كانون، والكن: الإقامة، والكن: البيت
	● شهر جمادى، الأولى والآخرة: من شهور الشتاء والأندية والبرد،
٥٢	يقابلهما في السريانية شباط وآذار
	● رجب: شهر الله. سمي رجباً لما كان يقع فيه من الترجيب، وهو دهم
٥٧	النخيل لئلا يساقط ثمره
	● شعبان: سمي بذلك من التشعب، وهو التفريق إلى الديار بعد
٦٢	الاجتماع في البادية
	● رمضان: يقع في زمن الرَّمَضِ واشتداد الحرّ، والتحثُّ
٦٥	● سؤال: تبلغ فيه الحرارة غايتها، ويرتحل الناس إلى الحج
٦٧	● ذو القعدة: لعله كان شهر المواسم وشهود أسواق مكة
٦٩	● ذو الحجة: شهر الحج إلى كعبة مكة
٧١	- جدول أسماء الشهور كما كانت عند الأقوام العربية القديمة
٧٦	- جدول مواقع شهور العرب من شهور السريانيين
٧٧	المطلب الثاني: مذاهب العرب في قسمة الفصول الطبيعية
٧٨	المطلب الثالث: وجوه التوافق بين التقويمين العربي القمري والشمسي
٩٣	

١٠٦ - ٩٣ أمثلة ووقائع مختلفة تُثبت التوافق
٩٣	١ - التوافق في تحريم شهري رجب وتيسان، ثم في المحرم وتشرين
٩٧	٢ - توافق وقوع أيام المعجوز في الزمن نفسه
٩٨	٣ - توافق موسم المشقر وعيد الفصح
١٠٠	٤ - توافق وقوع عاشوراء والعاشور في المحرم وتشرين
١٠٣	٥ - موسم الحج كان ثابتاً في ذي الحجة
١٤٢ - ١٠٧	الفصل الثالث: النسيء والنساء
١٠٧	مقدمة: معنى النسيء في اللغة والمصطلح
١٠٨	المطلب الأول: النساء أو القلائسة فقهاء العرب ومفتوهم
١١١	● جدول أسماء النساء من بني مالك بن كنانة من القرن الثاني إلى السابع
١١٥	المطلب الثاني: النسيء عند أهل الأخبار والمفسرين
	المذهب الأول: القول بأن النسيء تأخير لشهر المحرم (صفر الأول) وخزمتيه إلى
١١٥	صفر الآخر
١٢١	● تعقيب على أقوال أصحاب هذا المذهب
١٢٤	المذهب الثاني: القول بأن النسيء تأخير لموسم الحج
١٢٧	المذهب الثالث: القول بأن النسيء كان كبساً صحيحاً لإلحاق السنة القمرية بالسنة الشمسية
١٣٦	● ● خلاصة وملاحظات وتعقيب
	جدول مقارن لمعرفة مواقع سنني حادثة الفيل والبعثة والهجرة من التاريخ
١٤٢	الشمسي الميلادي
١٤٣	● تَبَتُّ المراجع والمصادر
١٤٧	● فهرس المطالب الفلكية وأقسام الزمن
١٥١	● فهرس الأعلام
١٥٥	● مَسَرَّد الأمثال الفلكية الطبيعية

مقدمة

المواسم والأزمنة الطبيعية

أَتَّخَذْتُ المَوَاسِمَ أساساً في هذا البحث، لأنَّ تَبْسِيطَ الأمور يقتضي رَدَّهَا إلى أصولها، وأصلُ الحاجةِ إلى العلمِ بالأزمنةِ والأوقاتِ ناشئٌ من الحاجةِ إلى معرفةِ مواسمِ الأمطارِ والرياحِ والبردِ والعباداتِ ونحوها... . والموسمُ من الوسمِ أي العلامة، فالموسمُ بذلك معلَّمٌ، والمعلَّمُ هو ما يُسْتَدَلُّ به، فكأنَّ وقتاً مُعَيَّناً من السنة حُدَّ بوسمٍ، أو أُعْلِمَ بعلامةٍ، فصار مَوْسِماً، أو معلَّماً، كلما رآه الناسُ، أو أذركهم أوأنه، اجتمعوا إليه، وأقبلوا عليه، كالعيد، ومواسم العبادة والحجِّ، والأسواق الموسميَّة العامَّة.

وعلى ذلك، فالمعلَّمُ يجبُ أن يكونَ معلوماً، مُعَيَّناً وثابتاً، سواءً أكان زماناً أو مكاناً، إذ لا يُمكن أن يُسْتَدَلَّ بمجهولٍ على معلومٍ، وإذا كان ما أُسْنَدَتِ الدَّلَالَةُ إليه مجهولاً، أو مُتَقَلِّباً غيرَ ثابتٍ، فهو ليس معلَّماً، ولا يمكن أن يكونَ موسماً، لأنه فَقَدَ الأساسَ الذي جَعَلَ منه ذلك المعلَّمُ، أو الموسمَ، وهو العلامةُ الثابتةُ المحدَّدةُ، والوسمُ المميِّزُ، وصار كالأعمى الذي يَقُودُ البَصِيرَ في قول بشار^(١):

أعمى يَقُودُ بصيراً، لا أبا لَكُمْ قد ضلَّ من كانت العُميانُ تَهْدِيهِ

(١) بشارُ بن بُرْد: (٩٥ - ١٦٧ هـ = ٧١٤ - ٧٨٤ م). أبو مُعَاذ، شاعر ضَرِيرٌ، نشأ في البصرة، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. يُعَدُّ شعره من الطبقة الأولى، وهو كثير متفرَّق، جُمع بعضُه في ديوان. لَتَّهِمَ بالزندقة، فَضْرِبَ بالسَّيَاطِ حتى مات.

فكيف يُستدلُّ بمَعْلَمٍ زمنيٍّ، إذا كان مُتَقَلِّباً غيرَ ثابتٍ، على مَوْعدٍ اجتماع قومٍ، الأصلُ فيه أن يكون مُحدَّداً وثابتاً، يعرفُه الناسُ إذا أَرَفَ، على تَباعُدِ أَقطارهم، واختلاف بلادهم وطوائفهم وتبايُنِ طرائقهم في تقسيم الأزمنة وحسابها، فيَسْعَوْنَ إلى التَّلَاقِ فيه، والاحتفال بِمَوْسِمِهِ؟... فالأساسُ في المواسم إذن أن تكون مَواقِيتُها معروفةً، ولكي تكون معروفةً لا بُدَّ أن تُحدَّدَ مَواقِيتُها في أزمانٍ ثابتةٍ، غيرِ مُتَقَلِّبةٍ، إلا بالقَدَرِ الذي يَتِمَكَّنُ معه كُلُّ امرئٍ من حسابها، ومعرفة حُدودها، إن كان يُريدُ قَصْدَها لِشُهُودِها، قادماً إليها من مَطَارِحَ بعيدةٍ...

والمعنى في ذلك أن مواسم العرب، كالحجِّ والأسواق الكبرى، وهي وجهٌ من وُجوه الحضارة في عصر الجاهلية، لا يكفي أن تكون مَواعيدُها معروفةً، وأيامُ قيامها وانقضائها معلومةً، بل يجب أن تكون لها مَواقِيتُ ثابتةٌ، لا تدورُ في الأزمنة، دَوْرانَ الشهور في السنة القَمَريَّة، تكونُ مرةً في الشتاء، وأُخرى في الصيف، تارةً في الربيع، وأُخرى في الخريف، بينما تظلُّ الشهورُ في السنة الشمسيَّة ثابتةً في مَواقِعها من الأزمنة الطبيعية... والمعروفُ أن السنة القمرية، ومقدارُها ثلاثُ مئةٍ وأربعةٌ وخمسون يوماً وثُلثُ يومٍ، تنقصُ أَحَدَ عَشَرَ يوماً عن السنة الشمسية، وعِدَّتُها ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستون يوماً وَرُبْعُ يومٍ، فإن لم يَجْرِ التوفيقُ بين السنتين بِكَبَسِ هذا الفَرْقِ^(١)، صارتِ الشهورُ القمرية دائِرةً في الأزمنة، دورةً تمتدُّ ثلاثاً وثلاثين سنةً قمريةً تقريباً، حتى تعودَ إلى مَواقِعها التي كانت عليها في ابتداءِ الدورة، وصارتِ المواسِمُ في الشهور القمرية، مناسباتٍ غيرَ مُنتظمةٍ، يَكلِّفُ الناسَ

(١) الكَبَسُ: تأخيرُ كُشورِ اليوم حتى تصير يوماً، أو الأيام حتى تصير شهراً، ثم زيادتهُ على السنة. يقال: كَبَسَ السَّنَةُ أي زاد فيها يوماً أو أياماً أو شهراً.

شُهوْدُها نَصَبًا، لَعَلَّه لا يَلْبِثُ حَتَّى يُؤَدِّيَ بِهِمْ إِلَى إِغْفَالِها، وَنَسْيَانِ أَمْرِها، أَوْ إِهْمَالِها. . . وَلِلذَلِكَ كَانَ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُومُونَ بِفِعْلِ «الْكَبْسِ»، تَثْبِيْتًا لِمَوَاسِمِهِمْ فِي الْأَزْمَنَةِ، وَيُسَمُّوْنَها: «النَّسِيَّة» بِمَعْنَى التَّأخِيرِ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْأَخْبَارِ وَبَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةَ هَذَا الْأَمْرِ، لِأَن فِي الْإِقْرَارِ بِهِ إِقْرَارًا لَهُمْ بِالْعِلْمِ، وَهُوَ مَا لَا يُرِيدُونَهُ! مَعَ أَنَّ نَزُولَ الْقُرْآنِ يَبْطُلُ النَّسِيَّةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ ظَلٌّ قَائِمًا حَتَّى حَرَمَهُ الْإِسْلَامُ، وَهُوَ دَلِيلٌ تُؤَكِّدُهُ الْمَعَانِي الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا أَسْمَاءُ الشُّهُورِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ اشْتَقَّتْ جَمِيعُها مِنْ طِبَائِعِ الْأَزْمَنَةِ الَّتِي كَانَتْ تَقَعُ فِيها، قَبْلَ أَنْ أَخَذَتْ تَدَوُّرُ فِي الْفُصُولِ بَعْدَما أُبْطِلَ النَّسِيَّةُ. وَلِلذَلِكَ أَيْضًا كَانُوا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، يُسْقِطُونَ سَنَةً عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً هَجْرِيَّةً، وَيُسَمُّوْنَها سَنَةَ الْإِزْدِلَافِ، أَيْ التَّقْرِيبِ، «وَأِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، الْفَرَارُ مِنْ اسْمِ النَّسِيَّةِ»، الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ»^(١). . . وَلَا يُمْكِنُ الْقَبُولُ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَالَ إِنَّ الْعَرَبَ، لَمَّا أَطْلَقُوا الْأَسْمَاءَ الْمُنَاسِبَةَ عَلَى شُهُورِهِمْ وَفَاقًا لِمَوَاقِعِها مِنَ الْأَزْمَنَةِ، لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِمْ أَنَّها سَتَدَوِّرُ فِي الْأَزْمَنَةِ، وَتَقَعُ شُهُورُ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَشُهُورُ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَالْقَبُولُ بِمَذْهَبٍ كَهَذَا يَعْنِي إِضَافَةَ الْجَهْلِ وَالْغَبَاءِ وَالْغَفْلَةَ إِلَى الْعَرَبِ، وَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، لِأَن فِيهِ ظُلْمًا، وَإِتِّثَاتًا عَلَى الْعَقْلِ وَالْحَقِّ مَعًا.

وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ لَنَا فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْبَحْثِ فِي مَوْضُوعَيْنِ، أَوَّلًا فِي تَقْسِيمِ الْأَزْمَنَةِ عِنْدَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ فِي أُمُورِ النَّسِيَّةِ وَالنَّسَاءَةِ، حَتَّى نَقِفَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي هَذَا الشَّأْنِ الَّذِي كَانَتْ تَتَعَلَّقُ بِهِ مَوَاسِمُ أَسْوَاقِهِمْ وَحَجَّجِهِمْ وَزَرَاعَتِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ، وَهُوَ مَطْلَبٌ دَقِيقٌ جَدًّا، وَعَسِيرٌ، أَغْنَى بَحْثُهُ كَثِيرِينَ قَبْلِي، وَسَيَظَلُّ يُغْنِي الْبَاحِثِينَ بَعْدِي، لِكَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِ مِنْ رِوَايَاتٍ

(١) أَبُو الْعَبَّاسِ الْقَلْقَشَنْدِي - صَبِيحُ الْأَعْيُنِ: ٤٢٦/٢.

وأخبار، ينقضُ بعضُه بعضاً، إلا إذا ظهر يوماً دليلٌ من الثَّراثِ، يقطعُ الشكَّ باليقين، ويضعُ الأمور في نصابها. وإلى أن يظهر مثلُ هذا الدليل، ليس لنا إلا أن نُقلِّبَ تلك الروايات والأخبار، ونبحث فيها على طريقة الاستقراء والاستدلال، كي نخلصَ إلى ما يمكن أن يكون أقربَ الأمور إلى الحق والعقل، وأكثرها اتفاقاً مع منطق التاريخ، ووقائعه التي كُتِبَ لها أن تُدَوَّنَ عند العرب... ولا أرى، في غياب النصوص، ما يمنع أن يكون استقراء الوقائع الماثورة، دليلاً على ما كان يجري في التاريخ القديم، ولا سيما إذا خلا ذلك التاريخُ من رواياتٍ وأخبارٍ يقيئُ أو ظنُّهُ! على أن تاريخنا لم يخلُ كلُّ الخُلُوِّ من تلك الروايات والأخبار، بل جاءت فيه نصوصٌ كثيرةٌ، متشورةٌ خلال موضوعاتٍ أخرى، ومُصَنَّفَاتٍ مختلفة، يمكن بالرجوع إليها تحقيقُ الكثير.

* * *

الفصل الأول

الأصل في حساب الزمان عند العرب

المطلب الأول - علم الفلك والنجوم عند العرب:

إن مما لا خلاف فيه، أن شعوب العرب كانت، في جُمْلَتِها، من أكثر الأمم تأثلاً في السماء، ورُضْداً للكواكب والنجوم، اهْتِداءً بها في ظلمات البر والبحر، وتَوْصُّلاً إلى معرفة الأجواء والأنواء، والعلم بطبائع الأزمنة، ومواعيد الأمطار، لما لذلك كله من علائق وثيقة بحياتهم، ومواسمهم الدينيّة والزراعيّة والتجاريّة، وتَقْلُبُهم في الأرض بأنعامهم وغلّاتهم ومَتَاجِرهم، وهو ما حَمَلهم على مُتَابَعَةِ حركة الأفلاك، وتعيين منازل الشمس والقمر، ومراقبة مطالع النجوم ومَغَارِبها، ومَوَاقِيتِ كُلِّ أولئك، ومَوَاقِعِهِ من تَقْلُبِ الأزمنة، واختلاف ظواهر الطبيعة، من حَرٍّ وَبَرْدٍ، ورياحٍ، وأمطارٍ، وثلوجٍ، وغير ذلك^(١)...

ويُعَدُّ الكلدانيون، أو البابليون، «أساتذة العالم في علم النجوم، هم وضعوا أُسُسَهُ، ورفعوا عُمُدَهُ، ساعدتهم على ذلك صفاء سمائهم، وجفاف هوائهم، واستواء آفاقهم، فرصدوا الكواكب، وعَيَّنُوا أَمَكانَها، ورسموا الأبراج، ومنازل الشمس والقمر، وحَسَبُوا الخُسُوفَ والكُسُوفَ بآلاتِ فلكية

(١) د. جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤٣٤/٨ - ٤٣٥، والحواليات الأثرية السورية لعام ١٩٨١ - معاني النجوم: المجلد ١٨/٣١.

منذ بضعة وأربعين قرناً، وعنهم أخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن القديم...^(١). ولما فتح الفرس بلاد بابل (٥٣٨ ق. م)، وقضوا على الإمبراطورية البابلية الحديثة «الكلدانية»^(٢)، هاجر كثير من الكلدانين إلى بلاد العرب، وكانت وقتئذ ملاذ المهاجرين من العراق ومصر والشام، لامتناعها على الغزاة بما كان فيها من البوادي والقلوات الشاسعة، ولسهولة السكنى بها على أهل بابل، لما كان يجمع بينهم وبين أهلها من قرابة في اللغة والأصول. وكان في جملة المهاجرين طائفة من الكهّان^(٣)، وأصحاب النجوم، اكتسب العرب منهم علماً كثيراً بمواقع الأبراج، ومنازل الشمس والقمر، وعقائد النجوم والتنجيم، وأضافوه إلى ما سبق لهم كشفه، والعلم به، في هذا الموضوع^(٤). وكان من أشدّ مزايا الديانة البابلية ظهوراً، فضلاً عن الأساطير الدينية، تفسير الظواهر الطبيعية «العرافة»، والعلم بالأجرام السماوية، والتنجيم، والتعاويذ السحرية^(٥). وقد ذكر «پرستيد» أن الكلدانين حققوا في علم الفلك نجاحاً كبيراً، وأنهم كانوا قبل ذلك مؤلّعين بعلم التنجيم لكشف أسرار الغيب، فوضعوا خريطة للأجرام السماوية، وقسموا الكواكب إلى اثنتي عشرة مجموعة، كل مجموعة منها تُسمّى بُرجاً، وكان من عقائدهم أن للسيّارات الخمس: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، سلطاناً على الناس وأحوالهم^(٦)، وأن لها ارتباطاً بالمعيشة اليومية،

(١) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي: ١٢/٢.

(٢) وليم لانجر - موسوعة تاريخ العالم: ٥٦/١ - ٥٧.

(٣) الكاهن: هو في الأصل من يدّعي العلم بالأسرار وأحوال الغيب، ويستوي معه في هذا المعنى العراف والمُنَجِّم.

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي: ١٣/٢ و ١٩.

(٥) موسوعة تاريخ العالم: ٥٦/١.

(٦) جيمس هنري برستيد - العصور القديمة: ١٨٤.

وطوالع الأوقات، وحوادث الأيام^(١)... وكانوا يُقدِّسون هذه الكواكب، ومعها الشمس والقمر^(٢)، ولذلك صار رقم السبعة مُقدَّساً^(٣)، وأصبح عندهم عقدة حسابية، يشهد لها جعلهم أيام الشهر أربع مجموعات، كل مجموعة سبعة أيام^(٤). وكان حساب الزمن عند أهل بابل، من الأكاديين والعثوريين والكلدانيين، يقوم على دورة القمر، وكانت سنتهم (٣٥٤) يوماً وبعض اليوم، فكانوا يستعملون الكبس، ليضمّنوا التوافق بين دورتي القمر والشمس، وهو ما أخذه عنهم العرب والعبرانيون واليونان، وكذلك الرومان في بداية أمرهم^(٥).

وقد جاءت الكلمات: «يرخ» في الآرامية والفينيقية، و«ورخ» في العربية الجنوبية، و«أرخ»، و«ورخ» في العربية الفصحى، لتؤدّي جميعاً المعنى نفسه، أي الشهر، أو القمر، أو التاريخ بمعنى تعيين الزمن^(٦)، مما يعني أنهم كانوا يومئذ على شاكلة واحدة في قياس الزمن. ومن المحقق أن

(١) عباس محمود العقاد - أثر العرب في الحضارة الأوروبية: ١٦.

(٢) كانت ديانات الوثنيين تقوم في الأصل على الاعتقاد بأن القمر سيّد الآلهة، وزعيمها، فقدّموه عليها جميعاً، بما في ذلك الشمس. ويسمّى القمر الإله «سين»، ويُرْمَز إليه بالصنم «وَدَّ» عند عرب اليمن والحجاز، كما يُرْمَز إلى الشمس بالصنم «اللات»، وقد جعلوها زوجة للقمر، أولدتها الزهرة. ومن هنا ندرك علّة الابتداء بالتقويم القمري عند مختلف الأمم القديمة، ثم انتقالها أتمّة بعد أخرى إلى التقويم الشمسي في تطوّر لاحق.

(٣) قد اكتُشف بعدها كوكب أورانوس (١٧٨١ م)، ونبوتون (١٨٤٦ م)، وبلوتون (١٩٣٠)، فصارت عشرة كواكب.

(٤) الحوليات الأثرية السورية: ١٨/٣١، والمفصل: ٤٦٢/٨ - ٤٦٣.

(٥) محمد عزة دروّزة - تاريخ الجنس العربي: ٢٠٣/٣.

(٦) د. عبد الحميد زايد - لغات الشرق الأدنى القديم - مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني: ٨٤٩، ١١٠٧، والمفصل: ٤٤٦/٨.

تقسيم الشهور والأيام، كما عُرِفَ في بلاد الرافدين والشام وجزيرة العرب، قد كان عليه طابعُ اللغات العربية القديمة^(١)، وهو ما يُشير إلى أصل واحد له، قديم، نجدُ مُصدّقه أيضاً في أسماء الكواكب، والنجوم، ومنازل الشمس والقمر، والبروج، فإنها عند العرب كما كانت عند الكلدانيين تماماً^(٢)، مع بعض الفروق في النطق، والاختلاف في بعض الحروف. ويبدو من قِدَمِ أسماء تلك النجوم في العربية، قِدَمُ معرفة العرب بها، وبمواقعها، وما يتصلُّ بها من العلوم، والمعارف، والعقائد، وتقسيم الزمن. وهكذا يمكن القول بأن العرب كانوا مَدِينِينَ في كثير من عِلْمِهِم بالنجوم والأنواء والأزمنة للبابليين، أو الكلدانيين، وكانوا يُسمُّون مَنْ قَدِمَ إليهم منهم الصابئة^(٣)... ولعلَّ الصابئة طائفة من بقايا الأقوام العربية القديمة في بلاد الرافدين وشمال سورية^(٤)، انتشرت في بلاد العرب بعدما قضى الفرسُ على إمبراطورية بابل، تحملُ معها عقائدها وديانتهَا وعلومَهَا وأساطيرها.



ولا نريد التوسُّع فيما كان يُحيط به عربُ الجاهلية من علم النجوم والأفلاك، وإنما حَسَبْنَا الاجْتِزَاءَ بِخُلَاصَةٍ ما كانوا يعرفونه عن الشمس والقمر، وبعض النجوم الثابتة، التي تنتقلُ فيها الشمسُ في فصول السنة، وينتقلُ فيها القمرُ من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه^(٥)، والتي اتخذوها

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية: ١٤.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ١٤/٢ - ١٥.

(٣) المرجع نفسه: ١٣/٢.

(٤) الصابئة: قوم يُقال إنهم على دين نوح، ويزعم بعضُ الباحثين أنهم طائفة من النصاري، وهو غير صحيح، لأن القرآن الكريم جعلهم طائفةً مُستقلةً عنهم.

(٥) صبح الأعشى: ١٦٨/٢، ١٧٣.

أعلاماً على تعاقبِ الأزمنة، وتقلبِ الأنواء، واختلافِ الفصول، مما يتعلق به انتظامُ مواعيدِ المواسم الزراعية والدينية والتجارية.

والفلكُ عند العرب مدارُ النجوم^(١)، سُمِّي فلكاً لاستدارته^(٢)، وسُمِّيَت الدائرة التي ترسمها الشمسُ، بحركتها الخاصة في دورة لها، تامة، فلكَ البروج^(٣)، وهي إثنا عشر بُرجاً من النجوم الثابتة^(٤)، تقطعها الشمسُ في دورة تامة، مدَّتها ثلاثُ مئة وخمسة وستون يوماً وربعُ يومٍ، سُمِّيَت سنة الشمس. ولَمَّا كان القمرُ، كما قال المرزوقي^(٥): «يجتمعُ مع الشمس في مُدَّة هذه الأيام، اثنتي عشرة مرَّة، فقد جُعِلَت سنةُ الشمس اثني عشرَ شهراً، وسُمِّيَت الشهورُ القمرية، كما جُعِلَ الفلكُ اثني عشرَ بُرجاً، لكل شهرٍ برجٌ»^(٦).

فكَأَنَّ المرزوقيَّ أراد بهذا القول، أنهم كانوا يَعتدُّون في الفصول الطبيعية، وعدَدِ السنين بدورة الشمس، ويَعتدُّون في حساب الشهور والآجال والمواعيد بدورة القمر. ذلك أن الفصول الطبيعية تنفصلُ بمسير الشمس، لا

(١) ابن منظور - لسان العرب: ٤٧٨/١٠ (فلك).

(٢) صبح الأعشى: ١٦٣/٢.

(٣) أبو علي المرزوقي - الأزمنة والأمكنة: ١٧٠/١.

(٤) النجوم الثابتة: هي الكواكب التي تظلُّ ثابتةً في مكانها من الفلك، لا تتحرَّك من المغرب إلى المشرق، كما تتحرَّك الكواكبُ السَّيَّارة، وإنما تتحرَّكُ بحركة الفلكِ كُلِّهِ من المشرق إلى المغرب، في اليوم واللييلة. وأشهرُها الكواكب التي تُعرف بها الأزمنة والأنواء، وهي نجومُ البروج التي تنتقلُ فيها الشمس، ونجومُ المنازل التي ينتقل فيها القمرُ كل ليلة في منزل، ونجومُ أخرى مثلها، كانوا يستدلُّون بها على شؤونٍ مختلفةٍ من شؤون حياتهم، منها: سُهَيْلٌ، والسَّهَاءُ، والفَرْقَدَان، والشَّعْرَيَان: الشَّعْرَى العَبُورُ والشَّعْرَى الغُمِيصَاءُ..

(٥) المرزوقي: أبو علي، أحمد بن محمد، عالم بالأدب والفلك وأخبار العرب. توفي سنة ٤٢١ هـ.

(٦) الأزمنة والأمكنة: ١٧١/١، و ٢٠٥/١.

بمسير القمر^(١)، والشهور إنما تُشهر وتظهر بظهور القمر^(٢)، لا بمسير الشمس وظهورها. وعلى هذا المذهب كان اعتماد العرب واليونانيين والعبرانيين، وهو مذهب البابليين في الأصل، كما ذكر بعض المؤرخين^(٣). ولعلهم كانوا يتخذون في تقويمهم السنة الشمسية في الفصول الطبيعية وتقلبها، والشهور القمرية في المواعيد والآجال... ويبدو واضحاً في الإنكليزية أن كلمتي: قمر «MOON»، وشهر «MONTH» من أصل واحد، وهو دليل على أن شهورهم قديماً كانت قمرية، مع أن سنتهم شمسية، وهو شأن الناس جميعاً...

ومن ذلك أن العرب، كما ذكر ابن منظور، كانت إذا نظرت إلى الهلال، قالت: لا مَرَحَباً بِمُحِلِّ الدِّينِ، مُقَرَّبِ الأَجَلِ^(٤)... ومنه أيضاً، أن مواعيدهم كانت تُبنى على رؤية الأهلّة، كقول الأزرقى، مثلاً، في خروج العرب إلى مواسمهم: «فِيضِبِحُونَ بِعُكَاظِ يَوْمِ هَلالِ ذِي القعدة، فيقيمون به عشرين ليلةً، تقوم فيها أسواقهم بِعُكَاظِ... فإذا مضت العشرون، انصرفوا إلى مَجَنَّةٍ، فأقاموا بها عَشْراً، أسواقهم قائمةً، فإذا رأوا هلالَ ذِي الحِجَّةِ، انصرفوا إلى ذِي المجاز، فأقاموا به ثمانَ ليالٍ، أسواقهم قائمةً...»^(٥).

ومنه كذلك، أن اليونان كانوا يجعلون موسمَ الألعابِ الأَلِمِبيَّةِ الدينية عندهم، «عقب ظهور البذر التالي للانقلاب الصيفي»^(٦)، أي في أوّل يوم

(١) الأزمنة والأمكنة: ١٦٧/١.

(٢) لسان العرب: ٤٣١/٤ (شهر)، ود. أنيس فريجة - أسماء الأشهر في العربية: ١٠.

(٣) ابن الأجدابي - الأزمنة والأنواء: ٢٩، وتاريخ الجنس العربي: ٢٠٣/٣.

(٤) لسان العرب: ١٦٧/١١ (حلل).

(٥) أبو الوليد الأزرقى - أخبار مكة: ١٨٧/١ - ١٨٨.

(٦) قصة الألعاب الأَلِمِبيَّة - مجلة العربي (تموز - يولي ١٩٨٠): ٢٨.

يأتي مباشرةً، بعد اكتمال أوّل بَذْرِ في فصل الصيف، الذي يبدأ في الثاني والعشرين من شهر حزيران، حينما تحلّ الشمس في برج السرطان^(١). وبذلك يكون موعدُ قيام موسم المُبْسِ مَبْنِيّاً على تقويم شمسيّ قمرّي في آن معاً، غير ثابتٍ في يوم مُعيّن، بل في فصل مُعيّن.

ومثله أيضاً موسمُ الصوم الكبير عند النصارى، فقد كان وما يزال يقومُ على ميقاتِ شمسيّ قمرّي معاً، غير ثابتٍ في يوم مُعيّن، بل في زمنٍ أو فصلٍ مُعيّن من السنة. فأوّلُه عند نصارى الشرق يُلتَمَسُ ابتداءً من ثاني شباط - فبراير حتى الثاني من آذار - مارس، ويجب أن يقع أبداً في يوم الإثنين، الأقرب إلى اجتماع الشمس والقمر في آخر الشهر القمريّ، إمّا قبل الاجتماع، وإمّا بعده. وفطرُهم أبداً يكون يوم الأحد، وهو التاسع والأربعون من ابتداء الصّوم^(٢). . . . كما أن مَجْمَعُ كنيسة نيقية بالاناضول، قرّر سنة (٣٢٥ م)، أن الاحتفال بعيد الفصح^(٣)، وهو ما يأخذُ به الغربيّون، ويجب أن يكون في أوّل يوم أحدٍ، يأتي بعد البَذْرِ الأول في فصل الربيع^(٤) يُخيّون فيه ذكرى قيامة المسيح من القبر، وهو ما يجعلُ موعدَ قيامه مُعيّناً في شهر قمرّي وفصلٍ شمسيّ، فيكون موسمُ الفصح بذلك مُتَنَقِّلاً بين

(١) الأزمنة والأنواء: ١٠٠ - ١٠١.

(٢) مختصر تاريخ البشر: ٩١/١. واقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٠.

(٣) عيد الفصح: يحتفل فيه اليهودُ بذكرى خلاصهم من فرعون، وخروجهم من مصر بقيادة موسى، واتفق لهم ذلك ليلة الخامس عشر من نيسان (القمري)، والقمرُ تامُّ الضوء، والزمانُ زمانُ ربيع، فظلّوا يحفظون ذلك اليوم. ثم صار عند نصارى الشرق عيدَ قيامة المسيح من القبر، بعد الصَّلَبِوت والموت، ويُسمّونه أَحَدَ القيامة، وهو بالتقويم الشمسيّ غير ثابت في يوم مُعيّن، بل يدور من ثاني عشر آذار إلى خامس عشر نيسان.

(٤) موسوعة كومبتون: ٢٤٣/٤ - Compton's Ency. D, E, 4/243، والمنجد في الأدب والعلوم: ٣٩٠.

(٢٢) آذار - مارس، و (٢٥) نيسان - أبريل، وموسم الصوم الكبير مُتَنَقِّلاً أيضاً بين (٢) شباط - فبراير ومطلع آذار - مارس من كل عام... ويلاحظ كذلك أن «عيد النصارى ليس يوماً محدوداً من السنة الشمسية، وإنما هو يتقدّم فيها، ويتأخّر في نحو ثلاثة وثلاثين يوماً»^(١).

ومن شأن ذلك كله، أن يؤكد لنا اعتماد مُعظم الأمم وقتنّه تقويماً شمسياً قمرياً لِمَوَاسِمِها، وأن العرب لا يمكن أن يَشُدُّوا وحدهم عن هذا التدبير، لأنهم لم يكونوا في عَزَلَةٍ عن الناس، وكيف يكونون كذلك وهم زعماء التجارة، وأصحابُ المواسم الكبرى؟... على أن هنالك نصّاً في حديث الأسواق الموسمية، يؤكد أن مواعيد مواسمهم كانت ثابتة، باعتمادها حركة منازل القمر، فقد نقل المرزوقي أن أهل الشام كانوا، كلما أَقَلَّتِ الثريا، أي غابت في العَشِيَّةِ مع غروب الشمس، اعتدوا خمسة وعشرين يوماً، ثم أقاموا في اليوم التالي موسمَ سوق «دير أيوب»^(٢)، وهذا الموعدُ مُقَدَّرٌ عندهم نحو الثالث والعشرين من نيسان - أبريل^(٣)، لكنه يعني أن العرب في الجزيرة كانوا إذا أرادوا شهودَ ذلك الموسم في موعده، كان عليهم أن يَلْحَظُوا موعدَ أَقُولِ الثريا، أو أن يُقَدِّرُوهُ على حساب أهل الشام، ليعلموا ميقاتَ قيامه، الذي يكون ثابتاً غالباً، ضمن حدود الفرق في حساب النجوم بين أهل الحجاز مثلاً وأهل الشام.



(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٥.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٦٩/٢.

(٣) زكريا القزويني - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ١١٨.

وَتَقْتَضِيْنَا النَّزَاهَةَ أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَنْ ابْنَ تَيْمِيَّةَ^(١)، عَدَّ مُرَاعَاةَ التَّوْقِيتِ الشَّمْسِيِّ الْهَلَالِيَّ بِذَعَةٍ، «أَحَدَثَهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، بِاتِّفَاقٍ مِنْهُمْ، خَالَفُوا بِهَا الشَّرِيعَةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَا وَقَّتُوا الْعِبَادَاتِ إِلَّا بِالْهَلَالِ»^(٢). . . فكيف ذلك والصلوات الخمسُ مَنُوطَةٌ بِالشَّمْسِ؟ وَالزَّكَاةُ لَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُهَا إِلَّا بِالتَّوْقِيتِ الشَّمْسِيِّ، عَنَيْتُ الْفُصُولَ الطَّبِيعِيَّةَ لِسَنَةِ الشَّمْسِ؟ وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ وَالتَّنْفَرُّ وَالْإِفَاضَةُ كُلُّهَا مَنُوطَةٌ بِالشَّمْسِ؟ وَالصَّيَامُ إِنَّمَا هُوَ، فِي الشَّرْعِ، إِمْسَاكٌ عَنْ شَهْوَتِي الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ مَعَ تَبْيِيهِ النَّيَّةِ. أَمَّا شُهُودُ هَلَالِ رَمَضَانَ، وَإِنْ كَانَ مُوجِبًا لِلدَّخُولِ فِي شَهْرِ الصَّوْمِ، فَإِنَّ عَدَمَ شُهُودِهِ لَا يَرْفَعُ عَنِ الْمُسْلِمِ فَرِيضَةَ الصَّوْمِ، فَهُوَ مُجْبَرٌ عَلَى الصَّوْمِ إِنْ رَأَى الْهَلَالَ أَوْ عَمَّتْ عَلَيْهِ رُؤْيَتُهُ.

* حَسَابُ مَنَازِلِ الْقَمَرِ:

وَيَبْدُو أَنَّ الْعَرَبَ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، لَمْ يَعْتَمِدُوا صُورَ الْبُرُوجِ فَقَطْ كَمَا رَصَدَهَا الْقَدَمَاءُ، بَلْ رَصَدُوا نَجُومًا أُخْرَى ثَابِتَةً، يَدْخُلُ فِي صُورِهَا مَعْظَمُ كَوَاكِبِ الْبُرُوجِ^(٣)، فَكَانُوا يَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَى الْعِلْمِ بِفُصُولِ السَّنَةِ وَأَزْمَتِهَا، بِطَرِيقَةٍ أَشَدَّ وَضُوحًا، وَأَكْثَرَ سَهُولَةً. فَقَدْ وَجَدُوا أَنَّ مَا تَقْطَعُهُ الشَّمْسُ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مِنَ الْفَلَكَ، يَقْطَعُهُ الْقَمَرُ فِي ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، فَقَسَمُوا نَجُومَ هَذَا الْفَلَكَ عَلَى مِقْدَارِ الْأَيَّامِ الَّتِي يَقْطَعُهَا الْقَمَرُ فِيهَا، وَطَلَبُوا فِي كُلِّ قِسْمٍ

(١) ابْنُ تَيْمِيَّةَ: أَبُو الْعَبَّاسِ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، الْحَرَّانِيُّ، الدَّمَشْقِيُّ، الْحَنْبَلِيُّ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ. كَانَ آيَةً فِي الْعِلْمِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْأَصُولِ، فَصِيحُ اللِّسَانِ، أَفْتَى وَدَرَسَ وَنَظَرَ الْعُلَمَاءُ، وَهُوَ دُونَ الْعِشْرِينَ. مَاتَ مُعْتَقَلًا بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ سَنَةِ (٧٢٨ هـ = ١٣٢٨ م).

(٢) اقْتِضَاءُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ: ٢١٠.

(٣) صَبْحُ الْأَعْشَى: ١٦٨/٢، ١٧٣، ١٨١ - ١٨٢، وَالْأَزْمَنَةُ وَالْأَنْوَاءُ: ٦٣.

علامة تكون أبعاد ما بينها وبين العلامة التي تليها مقدار مسير القمر في يوم، وسمّوا ما بين كلّ علامتين منزلة، فتحقق لهم بذلك ثمان وعشرون منزلة، سمّوها منازل القمر^(١). وجعلوها قسمين: أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، في كلّ منها أربع عشرة منزلة، فالشمالي ما كان طلوعه من ناحية الشام، والجنوبي ما كان طلوعه من ناحية اليمن. وهي جميعاً مقسومة كذلك على البروج الإثني عشر، موزعة عليها بمقدار منزلتين وثلاث منزلة لكل بروج منها^(٢). والمنازل للقمر كالبروج للشمس، ومثلما جعل الله «في مسير الشمس وانتقالها في البروج علماً على انتقال الزمان، واختلاف أحواله في الطول والقصر، والحرّ والبرد»^(٣)، فإنه جعل في حركة منازل القمر أيضاً أعلاماً أخرى ثابتة، دقيقة، استدللّ العرب بها على توالي فصول السنة، ومواسم المطر والرياح والحرّ والبرد، ومواعيد الأعياد والأسفار والديون وغيرها. فقد وجدوا أن منزلاً من تلك المنازل يسقط في أفق المغرب مع الفجر، كلّ ثلاثة عشر يوماً، ويطلع آخر يقابله في أفق المشرق، من ساعته، سوى واحد، فإنّ له أربعة عشر يوماً، وهو منزل «الجهة»، فتتقضي جميعها بانقضاء ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً تقريباً، وهي عدّة أيام سنة الشمس^(٤). . . . وعرفوا أن لكل منزلة في السنة طلوعاً وسقوطاً، بينهما مئة واثنان وثمانون يوماً تقريباً، وكلاهما معلومٌ مُسمّى، وعليه معول العرب في حساب الأزمنة والأنواء^(٥). . . . ومن ذلك مثلاً: تنجيم الدّين، وهو أن يُقدّر

(١) صبح الأعشى: ٣٩٨/٢.

(٢) المرجع نفسه: ٣٩٩/٢، ولسان العرب: ١٧٦/١ (نوا).

(٣) الأزمنة والأنواء: ٨٢.

(٤) لسان العرب: ١٧٦/١ (نوا)، والأزمنة والأمكنة: ١٨٦/١، وصبح الأعشى: ٣٧٧/٢،

٣٨٢.

(٥) الأزمنة والأنواء: ١٠٧ - ١٠٨، ولسان العرب: ١٧٦/١.

عَطاؤُهُ، في أوقاتٍ معلومةٍ مُتتَابِعَةٍ، تعتمدُ مطالعَ النجوم ومساقطها، والأصلُ في ذلك كما قال ابنُ منظور: «أن العرب كانت تجعلُ مطالعَ منازلِ القمر، ومساقطها، مَوَاقِيتَ حُلُولِ دُيُونِها وغيرها»^(١)، وكانوا، كما يُفهم مما نقله المرزوقي، يعلمون أن «بين طُلُوعِ الثُّرَيَّا مع الفجر، وعَوْدِهِ إلى طُلُوعِ مِثْلِهِ» سنةٌ شمسيةٌ تامَّةٌ، وقد كانوا يُسَمُّونها حَوْلَ الثُّرَيَّا^(٢)... ومنه أيضاً، أن النجوم التي تنسب العربُ إليها الأنواء هي منازلُ القمر، ذلك أنهم نظروا فوجدوا للأمطار والرياح زماناً تكثر فيه، وزماناً تَقَلُّ فيه، فرتبوا معرفتهم بها على أنواء تلك الكواكب^(٣). ومذهبهم في ذلك «أن تُجعل الأنواء أعلاماً للأمطار، وأوقاتاً لها...»^(٤)، ومعنى النَّوء في الأصل النهوضُ، ولكنه هنا سقوطُ نجمٍ في المغرب وطلوعُ آخرٍ في المشرق^(٥)، فإذا ناءَ النجمُ من هذه المنازل، وكان في مُدَّةِ نَوْتِهِ مطرٌ أو ريحٌ أو بردٌ، فهو منسوبٌ إليه عند سقوطه، أمّا ما كان من حَرٍّ وَسَمُومٍ فإنما هو عند طلوعه^(٦). ولا أرى هذا التعريفَ دقيقاً، فمَنْزِلُ «سعد الذابح» مثلاً يطلعُ في أشدَّ الأيام برداً، ويسقط في أشدّها حرّاً.

صفوة القول في معرفة عربِ الجاهلية شؤونَ الأفلاك والنجوم، أنهم كانوا على علمٍ غير قليلٍ بها، لحاجتهم إلى الاهتداء بها في ظلمات البرِّ والبحر، وفي تقلُّبِ الطبيعة وفصولها، وفي أقسامِ الوقت وتتابعِها.

(١) لسان العرب: ٥٧٠/١٢ (نجم).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢٠٢/١.

(٣) صبح الأعشى: ١٨٨/٢.

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٣٦.

(٥) لسان العرب: ١٧٧/١ (نوا).

(٦) الأزمنة والأنواء: ١٣٥، ولسان العرب: ١٧٧/١، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ٧٦ - ٧٧.

مَنَازِلُ الْقَمَرِ الثَّمَانِيَّةِ وَالْعَشْرُونَ وَأَيَّامُ مَطَالِعِهَا وَمَسَاقِطُهَا ابْتِدَاءً مِنْ أَوَّلِ السَّنَةِ

الرقم	اسم المنزل	يوم الطلوع وابتداء نَوْتِهِ	يوم السقوط وابتداء نَوْتِهِ	ملاحظات
١	الْفَرْغُ الثَّانِي أَوْ الْمَوْخَرُ	٢١ آذار	٢٠ أيلول	وهو فَرْغُ الرَّبِيعِ، ويقع في برج الدَّلُو مع الْفَرْغِ الْأَوَّلِ. يُؤَذَّنُ طُلُوعُهُ بِابْتِدَاءِ الرَّبِيعِ، وسَقُوطُهُ بِابْتِدَاءِ الْخَرِيفِ، وهو أول الأزمئة عند العرب.
٢	بطن الحوت أو الرشاء	٣ نيسان	٣ تشرين الأول	طُلُوعُ الثَّرَيَّا مُؤَذَّنٌ بِإِقْبَالِ الْحَرِّ وَشِدَّتِهِ، وسَقُوطُهَا مُؤَذَّنٌ بِانْتِهَاءِ الْوَسْمِيِّ.
٣	الْمَرْطَانُ	١٦ نيسان	١٦ تشرين الأول	
٤	البُطَيْنُ	٢٩ نيسان	٢٩ تشرين الأول	
٥	الثَّرَيَّا	١٢ أيار	١١ تشرين الثاني	
٦	الدَّبْرَانُ	٢٥ أيار	٢٤ تشرين الثاني	إذا طلعت الْهَقْمَةُ رَجَعَ النَّاسُ عَنْ الشُّجْعَةِ، وعند طلوعها تطلع الجوزاء، وحيث يكون التهابُ الحرِّ.
٧	الْهَقْمَةُ	٧ حزيران	٧ كانون الأول	
٨	الْهَيْئَةُ	٢٠ حزيران	٢٠ كانون الأول	
٩	الدَّرَاعُ	٣ تموز	٢ كانون الثاني	
١٠	النَّشْرَةُ	١٦ تموز	١٥ كانون الثاني	إذا طلع الْخُرُتَانُ جَنَى الْبُسْرِ بكل مكان، وطاب الزمان. وفي ١٩ أيلول ينتهي نَوْتُ طُلُوعِهِ يَذَاناً بِانْتِصِرَافِ الْحَرِّ. وفي ٢١ آذار ينتهي نَوْتُ
١١	الطَّرْفُ أَوْ الطَّرْفَةُ	٢٩ تموز	٢٨ كانون الثاني	
١٢	الْجَبْهَةُ	١١ آب	١٠ شباط	
١٣	الرُّبْرَةُ أَوْ الْخُرَتَانُ	٢٥ آب	٢٤ شباط	
١٤	الصَّرْفَةُ	٧ أيلول	٩ آذار	

الرقم	اسم المنزل	يوم الطلوع وابتداء نَوْتِه	يوم السقوط وابتداء نَوْتِه	ملاحظات
				سقوطها سُؤْفَنًا بانصراف البرد، وفي كليهما علامة على انصرام نصف السنة.
١٥	العَوَاء	٢٠ أيلول	٢٢ آذار	إذا طلع العَوَاء طاب الهواء
١٦	السَمَاك	٣ تشرين الأول	٤ نيسان	
١٧	العَفْرُ	١٦ تشرين الأول	١٧ نيسان	إذا طلع العَفْرُ ذهبت النضارة عن الأرض والشجر
١٨	الرُّبَانِي	٢٩ تشرين الأول	٣٠ نيسان	إذا طلعت الرُّبَانِي فاجمع للشتاء ولا تَتَوَانَّ
١٩	الإكليل	١١ تشرين الثاني	١٣ أيار	
٢٠	القلب	٢٤ تشرين الثاني	٢٦ أيار	
٢١	السُّوْلَة	٧ كانون الأول	٨ حزيران	
٢٢	التعائم	٢٠ كانون الأول	٢١ حزيران	
٢٣	البلدة	٢ كانون الثاني	٤ تموز	يشتد في نَوْتِه طلوعها برد الشتاء، ويجمد الماء.
٢٤	سعد الذابح	١٥ كانون الثاني	١٧ تموز	يشتد في طلوعه الصقيع
٢٥	سعد بلع	٢٨ كانون الثاني	٣٠ تموز	تأخذ الأرض في طلوعه بالاخضرار
٢٦	سعد السعود	١٠ شباط	١٢ آب	في طلوعه ينكسر الشتاء
٢٧	سعد الأخيصة	٢٣ شباط	٢٥ آب	يؤذن طلوعه باقتراب موسم الربيع، والانتقال من الأبنية في المحافير إلى الأخوية في المبادي
٢٨	الفرغ الأول	٨ آذار	٧ أيلول	طلوعه إزهاص بموسم الربيع، وسقوطه إرهاص بموسم الخريف

المطلب الثاني - مذهب العرب في قسمة الزمان :

من المتفق عليه أن الزمان ينقسم عند جميع الأمم بأربعة أقسام : القسم الأول منها يُسمَّى ساعة، والثاني يُسمَّى يوماً، والثالث يُسمَّى شهراً، والرابع يُسمَّى سنة^(١). وقد ذهب العربُ في تقسيم الزمان مذهبَ سائر الأمم، مع بعض الاختلاف في التفاصيل.

١ - الساعة :

جزءٌ من أجزاء الليل والنهار، والليل والنهار معاً أربعٌ وعشرون ساعة^(٢)، زمانٌ كلٌّ منهما اثنتا عشرة ساعة طال أو قصر^(٣)، ولكل ساعة من ساعات الليل والنهار عند العرب إسمٌ يُميّزها^(٤)، فأولُ ساعات الليل الشَّفَقُ وآخرها الفجرُ، وأولُ ساعات النهار الشُّروقُ وآخرها الغروبُ^(٥).

* * *

٢ - اليوم :

اسم للزَّمانين معاً، الليل والنهار، وابتدأه عند العرب بالليل^(٦)، من

(١) الأنواء : ٢٨.

(٢) لسان العرب : ١٦٩/٨ (سوع).

(٣) لا يتساوى الليل والنهار في الحقيقة إلا مرتين في السنة، في الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي، ويكون النهار أطول في الانقلاب الصيفي، وأقصر في الانقلاب الشتوي.

(٤) صبح الأعشى : ٣٨٤/٢.

(٥) الثعالبي - فقه اللغة : ٣٢٨ - ٣٢٩، ولسان العرب : ٤٥/٥ (فجر).

(٦) وابتدأه عند أهل الكتاب كذلك، ولكن اليونان والفرس يفتتحونه بطلوع الشمس ويختمونه بطلوعها في اليوم التالي، أما الرومان فيعُدُّون منتصف الليل مبدأ اليوم، ومنتهاه عند منتصف الليل التالي.

غروب الشمس، وانقضاؤه حين غروبها من اليوم القابل^(١)، ولذلك صار التأريخ عندهم بالليل من دون النهار^(٢)، لأن شهورهم مُقدَّرة بمسير القمر، وأوائلها مقدَّرة برؤية الأهلة^(٣)، والهلال أول ما يُرى عند مغيب الشمس^(٤). ومُدَّة الليل من لَدُنْ غروب الشمس إلى طلوعها وظهورها من الأفق^(٥)، ومُدَّة النهار أولها طلوع الشمس، وآخرها غروبها^(٦). وقد جاء ذِكْرُ «اليوم» والليل، والصبح في نصوص المُسنَدِ، دليلاً على أن عرب الجنوب عرفوا هذا التقسيم، على نحو ما عرفه عرب الشمال، إنما لم يرد فيها أسماء خاصَّة للأيام^(٧)، كما جاءت كلمة «اليوم» باللفظ نفسه في جميع اللغات السامية القديمة^(٨).



وكانت العرب، في الجاهلية الأخيرة، تستعملُ لأيام الأسبوع أسماء، قيل إن معانيها تُشير إلى أنها مَبْنِيَّةٌ على قصة الخلق، كما ذُكرت في التوراة^(٩)... فالأحد بمعنى الأول، والإثنين بمعنى الثاني، والثلاثاء بمعنى الثالث، والأربعاء بمعنى الرابع، والخميس بمعنى الخامس^(١٠)، والجُمعة

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٨، وصبح الأعشى: ٣٦٦/٢، والمفصل: ٤٦٥/٨.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٦٥/١.

(٣) صبح الأعشى: ٣٦٦/٢، والمفصل: ٤٤٥/٨.

(٤) المرجع نفسه: ٣٩٤/٢.

(٥) المرجع نفسه: ٣٦٧/٢.

(٦) الأزمنة والأمكنة: ١٦٥/١، وصبح الأعشى: ٣٧٦/٢.

(٧) المفصل: ٤٦٥/٧، ٤٦٨.

(٨) لغات الشرق الأدنى القديم - مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني: ١١٦١.

(٩) المسعودي - مروج الذهب: ١٩١/٢، والمفصل: ٤٦٧/٨.

(١٠) صبح الأعشى: ٣٨٨/٢ - ٣٨٩، وأبو الطيب عبد الواحد بن علي - شجر الدر: ١٨٦ - ١٨٧.

بمعنى الجمع، وكان اسمه من قبل: عَرُوبَة، وأوّل من سمّاه الجمعة: كعب بن لؤي^(١)، زعيم قريش في مطلع القرن الرابع الميلادي، وكلمة عَرُوبَة تعريب «أَرَبًا» النبطية، أو «عَرُوبَتًا» السريانية^(٢)، أو «عريب» العبرانية، ومعناها جميعاً: «الغروب»^(٣)، أو العَشِيَّة. وقد انتبه علماء العربية إلى هذا الاسم، فقالوا هو إسم قديم ليوم الجمعة، وكأنه ليس بعربي^(٤). . . أما اليوم السابع فهو السبت، وإنما سُمّي بذلك لأن الخلق انقطع فيه^(٥).

ولم يكن العبرانيون يُسمّون أيام الأسبوع بأسماء خاصّة، وإنما كانوا يعدّونها حسب ترتيبها، فيقولون اليوم الأول، فالثاني، فالثالث. . . كما هي معانيها عند العرب، إلا يومَي الجمعة والسبت، فكانوا يسمّون الجمعة: عريب شَبَات، أي عَشِيَّة السبت، ويُسَمّون السبت: يوم - ها - شبات، ومعناه يوم الراحة، لاعتقادهم أن الله خلق العالم في ستة أيام، واستراح في السابع^(٦).

وإذا لاحظنا أن الشَبَات في العربية معناه: الراحة، والنوم، والانقطاع عن الحركة^(٧)، وأن اللغات العربية، والسريانية، والنبطية الإزميّة، والعبرية تنتمي كلّها إلى أسرة اللغات الساميّة، ذات الأصول المشتركة، رجّح لدينا أن أسماء الأيام عند العرب يُنيث معانيها على عقيدة دينية، لعلها أصل قصة

(١) خير الدين الزركلي - الأعلام: ٢٢٨/٥، وصبح الأعشى: ٣٨٩/٢.

(٢) المعلم بطرس البستاني - محيط المحيط: ٥٨٦ (عرب)، والمنجد في اللغة: ٤٩٥.

(٣) المفصل: ٤٦٩/٨.

(٤) لسان العرب: ٥٩٣/١ (عرب).

(٥) مروج الذهب: ١٩١/٢.

(٦) المفصل: ٤٦٧/٨ - ٤٦٨.

(٧) لسان العرب: ٣٧/٢ (سبت).

الخلق، وربما كانت تعود إلى زمن إبراهيم عليه السلام، أو إلى مَنْ كان قبله^(١)، ثم تَلَقَّتْ عنها تلك الشعوب جميعاً عقائدها، ولا محلّ للزعم إذن بأن العرب في الجاهليّة نقلوا عنهم بتقسيم الأيام، وتسمية كلّ منها، عن العبرانيين، لأن هؤلاء كالعرب، أخذوا جُلَّ علمهم عن البابليين والسرّانيين^(٢).



٣ - الشهر:

الشَهْرُ في الأصل من الشُّهْرَة، وهي وضوحُ الأمر، سُمِّيَ بذلك لأنه يُشَهَّرُ بالقمر، وفيه علامةُ ابتدائه، وعلامةُ انتهائه، وكانت العربُ إذا أَهَلَّ القمرُ قالت: رأيتُ الشهرَ، أي رأيتُ هِلَالَهُ^(٣). وتعني كلمة «سَهْرًا» بالسرّانية: القمر، والشهرَ القمريَّ^(٤).

وعدّد أيام الشهر العربي، كما رسمه أهل الحساب، تسعةً وعشرون يوماً ونصف يوم على التقريب. ولَمَّا كان إثباتُ هذا الكسرِ غيرَ مُمكنٍ، جعلوا ستة أشهرٍ من السنة تامّةً، أي ثلاثين يوماً، وستة ناقصةً، أي تسعةً وعشرين، وكلّ شهرٍ تامٍّ يتلوه ناقصٌ، وابتدؤوا بالمحرّم فجعلوه

(١) تشهد الكتاباتُ المحفورة على الألواح المكتشفة في مملكة إيبلا بسورية، والتي يعود زمنها إلى (٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق. م)، أن الكنعانيين إخوان العرب، دوّنوا قصة الخلق والطوفان مفصّلةً في تلك الألواح، أي قبل نحو ألف سنة من ورودها في التوراة، وقبل أكثر من ثلاثة قرون على ظهور إبراهيم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

«إيبلا منعطف التاريخ: ٣٨، ٧٢، ٧٧».

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ٣، ١٣، والمفصّل: ٤٣١/٨، ٤٦٧.

(٣) لسان العرب: ٤/٤٣١ - ٤٣٢ (شهر).

(٤) لغات الشرق الأدنى - مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني: ١١٠٣، ١١١٦، ١١٥٤.

تاماً^(١)، وفي كل ثالثة من سني العرب يومٌ زائدٌ يُكبَسُ على ذي الحجة، فيصير ثلاثين يوماً^(٢) وتُسمَّى تلك السنة كبيسة... «فهذا الذي رسمه أهلُ الحساب في الشهور العربية، وهو مبنيٌّ على حساب المُفارقة^(٣)، ولم تكن العربُ تعملُ به، وإنما كان اعتمادُهم على الأهلة، فكانوا يفتحون الشهر إذا رأوا الهلال... ثم لا ينقضي الشهرُ عندهم حتى يروا الهلالَ كَرَّةً أخرى، فيبتدئون حينئذٍ شهراً ثانياً... ثم جاء الإسلامُ، فثبتَ ذلك، وألزمَ به في الصَّوم والفِطر والحجَّ^(٤)... وحسابُ المفارقة ربما وافق الرؤية، وربما خالفها، وخلافه لها هو الأكثر^(٥).

فمُدَّة الشهر عند العرب في الجاهلية كانت إذن «من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وذلك أسهلُ الطرقِ وأقربُها»^(٦)، والقمرُ يقطعُ الفلكَ في هذه المدَّة مرَّةً، فيأخذ كلَّ ليلةٍ في منزلٍ من منازلِه، ويقطعُها جميعاً في ثمانية وعشرين يوماً، فإن كان الشهرُ تسعةً وعشرين يوماً، استسَرَ ليلةً، تُسمَّى ليلةَ السَّرارِ، أي يختفي فيها عن الأبصار فلا يُرى، فإن كان الشهرُ ثلاثين استسَرَ ليلتين، قبل أن يظهر هلالاً كَرَّةً أخرى. وهو يُسمَّى هلالاً إلى ثلاث ليالٍ، ثم هو قمرٌ إلى آخر الشهر، ويُسمَّى بذراً في ليلة أربع عشرة لتمامه^(٧).

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٩، وصبح الأعشى: ٣٩٤/٢ - ٣٩٥، وعجائب المخلوقات: ١٠٩.

(٢) الأزمنة والأنواء: ٣٤.

(٣) أي مُفارقة كلِّ شهر ما قبله بزيادة يوم أو نقصانه.

(٤) الأزمنة والأنواء: ٣٥ - ٣٦.

(٥) المرجع نفسه: ٣٨.

(٦) صبح الأعشى: ٣٩٤/٢.

(٧) الأزمنة والأنواء: ٨٤ - ٨٥، ٨٩، والأزمنة والأمكنة: ٢٠٢/٦، وصبح الأعشى: ١٦٦/٢،

وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ٧٦.

وكانوا يُمَيِّزون لِيَالِي الشَّهْرِ، بِالأَسْمَاءِ الَّتِي أَطْلَقُوهَا عَلَيْهَا، فَكُلُّ ثَلَاثِ لِيَالٍ مِنْهَا لَهَا اسْمٌ خَاصٌّ بِهَا، عَلَى حَسَبِ حَالَةِ الْقَمَرِ فِيهَا... فَالْثَلَاثُ الْأُولَى: غُرَّرٌ، لِأَنَّ بَيَاضَهَا قَلِيلٌ كَالْغُرَّةِ. وَالثَّانِيَةُ: نُفْلٌ، لِأَنَّ الْغُرَّرَ كَانَتْ أَصْلًا وَهَذِهِ زِيَادَةٌ عَلَيْهَا، وَالثَّلَاثَةُ: بُهْرٌ، يَغْلِبُ فِيهَا ضَوْءُ الْقَمَرِ ضَوْءَ النُّجُومِ، وَالرَّابِعَةُ: زُهْرٌ، لِبَيَاضِهَا، وَالخَامِسَةُ: بَيْضٌ، لِأَنَّ الْقَمَرَ يَطْلُعُ فِيهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وَالسَّادِسَةُ: دُرْعٌ، لِسَوَادِ أَوَائِلِهَا وَبَيَاضِ سَائِرِهَا، وَالسَّابِعَةُ: ظُلْمٌ، لَغَلْبَةِ السَّوَادِ عَلَيْهَا، وَالثَّامِنَةُ: حَنَادِسٌ، لِشِدَّةِ سَوَادِهَا، وَالتَّاسِعَةُ: مَحَاقٌ، يَمَحِقُ فِيهَا الْهَلَالُ، وَالعَاشِرَةُ: الدَّادِيُّ، وَالدَّادَةُ شِدَّةُ الظُّلْمَةِ، وَفِيهَا يَسْتَسِرُّ الْقَمَرُ لَيْلَةً أَوْ لَيْتَيْنِ، فَلَا يُرَى غَدَوَةٌ وَلَا عَشِيَّةٌ، وَتُسَمَّى لَيْلَةُ الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ الدَّعْجَاءَ، وَالتَّاسِعِ وَالْعَشْرِينَ الدُّهْمَاءَ، وَالثَّلَاثِينَ اللَّيْلَاءَ، وَهِيَ الثَّلَاثُ الدَّادِيَّةُ^(١).

وَعِدَّةُ الشُّهُورِ عِنْدَ الْعَرَبِ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، أَوَّلُهَا: الْمَحْرَمُ^(٢)، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُسَمُّونَ الْمَحْرَمَ صَفْرًا، فَيَقُولُونَ: صَفَرُ الْأَوَّلِ، وَصَفَرُ الْآخِرِ، وَرَبِيعُ الْأَوَّلِ، وَرَبِيعُ الْآخِرِ، وَجُمَادَى الْأُولَى، وَجُمَادَى الْآخِرَةِ، وَرَجَبٌ، وَشَعْبَانٌ، وَرَمَضَانٌ، وَشَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ^(٣).

(١) الْأَزْمَنَةُ وَالْأَنْوَاءُ: ٨٥، ٨٧، وَصَبِيحُ الْأَعَشَى: ٣٩٦/٢، وَلِسَانُ الْعَرَبِ: ٧٠/١ (دَادًا)، وَ ٨١/٤ (بَهْرٌ)، وَ ٣٣٢-٣٣٣ (زَهْرٌ)، وَ ٥٨/٦ (حَنَادِسٌ)، وَ ١٢٤/٧ (بَيْضٌ)، وَ ٨٣/٨ (دُرْعٌ)، وَ ٣٣٩/١٠ (مَحَقٌ)، وَ ٦٧٣/١١ (نُفْلٌ)، وَ ٢١٠/١٢ (دُهْمٌ)، وَ ٣٧٨/١٢ (ظُلْمٌ)، وَمَرْجُوزُ الذَّهَبِ: ١٩٥/٢ - ١٩٦.

(٢) مَرْجُوزُ الذَّهَبِ: ١٨٨/٢، وَصَبِيحُ الْأَعَشَى: ٤٠١/٢.

(٣) أَنْبَاءُ مَكَّةَ: ١٨٣/١، وَالْأَزْمَنَةُ وَالْأَنْوَاءُ: ٣٤-٣٥، وَالسَّيْرَةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٤٤/١، وَالْمَرْتَضَى الزَّيْدِيُّ - تَاجُ الْعُرُوسِ: ٣٣٠/١٢ (صَفَرٌ).

٤ - السَّنَةُ:

كلمة من المُفْرَدَاتِ العربية القديمة، جاءت بلفظها ومَعْنَاهَا في كل لهجات العرب، وجاءت كذلك في اللغات السامية كافة^(١)، مثلما جاءت كلمة الشَّهْرِ أيضاً واحدة فيها جميعاً. وهو ما يَقْطَعُ بأن دَلَالَتِهَا في الأصل كانت واحدة، في جزيرة العرب كما في بلاد الشام والعراق. أي أن السنة عندهم مُدَّة معلومة ثابتة من الزمن، وهي مقدار دورة تامة للشمس، عند مَنْ يَتَّخِذُونَ الشمسَ وُجْهًا مِغْيَارًا لقياس الزمن، ومعرفة الفصول واختلافها. وهي كذلك المِقدَارُ نَفْسُهُ لِدَوْرَةٍ تامةٍ يَقْطَعُهَا مَنْزِلٌ من منازل القمر الثمانية والعشرين، عند مَنْ يَتَّخِذُونَ القمرَ وَمَنَازِلَهُ أعلاماً على انتقال الزمان، وتَقْلُبُ الفصول، ومن هؤلاء كان العربُ، وهذا ما أكَّده قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾^(٢)، فالعلمُ بعددِ السنين يقومُ على دورة منازل القمر، وليس على دورة القمر نفسه، ومَسِيرُ القمر إنما هو للعلم بعددِ الشهور، لا للعلم بعددِ السنين، أو بالمقدار الصحيح الثابت لأيام السنة.

ويأتي في العربية بمعنى السنة: العام والحَوْلُ. وربما وقع استعمالُ السنة على زمن الجَذْبِ، والعام على زمن الخِصْبِ، والحَوْلُ على الخِصْبِ والجَذْبِ جميعاً^(٣). وحال عليه الحَوْلُ، أي أتت عليه سنة تامة^(٤)، فالحَوْلُ سنةٌ بِأَسْرِهَا، يأتي على شَتْوَةٍ وَصَيْفَةٍ^(٥)، وكانت العربُ تجعلُ السنةَ نصفين:

(١) المفصل: ٤٣٧/٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

(٣) صبح الأعشى: ٤٢٣/٢ - ٤٢٤.

(٤) لسان العرب: ١٨٤/١١ (حول).

(٥) المرجع نفسه: ٥٠١/١٣ (سنة)، و ٤٣١/١٢ (عوم).

شتاء وصيفاً^(١)، فسُقُوطُ منزلة «الصَّرْفَةِ» في أفق المغرب علامةً على انصرام نصفِ السنة الشَّتوي، وطلوعُها علامةً على انصرام نصفِ السنة الصيفي^(٢)، وقد سُمِّيَتْ صَرْفَةٌ لانصرافِ البرد عند سُقوطِها، وانصرافِ الحرِّ عند طلوعِها^(٣). . . وهذا يُبَيِّنُ أن تقدير العرب للسنة الناقصة، قائمٌ على النظر في طلوع منازل القمر وسُقُوطِها، وحسابُ هذه النجوم كحساب سنة الشمس تماماً، في الفصول، وفي عددِ الأيام.

وتأتي كلمة الخريف أيضاً بمعنى السنة، أو العام والحَوْل، في لغات العرب الشمالية والجنوبية على السواء^(٤). ولعلَّ العِلَّةَ في هذه التسمية أن فصل الخريف كان أوَّلَ الأزمنة عند العرب، وأوَّلَ السنة، كما عند كثير من الأمم، وهو الفصلُ الذي تُخْتَرَفُ فيه الثَّمارُ، أي تُصَرَّمُ وتُجْتَنَّى^(٥)، وهو إلى ذلك من أكثر الأوقات وضوحاً في جزيرة العرب، ولا سيما في جنوبها. . .

والسنةُ عموماً هي المدةُ الجامعةُ للفصول الأربعة، ومقدارُها عند السريانيين والروم اثنا عشر شهراً شمسيةً، فيكون عددُ أيامها ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً ورُبْعَ اليوم، ومقدارُها عند العرب واليونانيين والعبرانيين اثنا عشر شهراً قمريةً، فيكون عددُ أيامها ثلاث مئة وأربعة وخمسين يوماً وثلاث اليوم، أي أنقصَ من عِدَّةِ السنة الطبيعية بأحدَ عشر يوماً تقريباً، فكان هؤلاء يزيدون شهراً كلَّ ثلاث سنين، وربما كلَّ ستين، فتكون الثالثة، أو

(١) الأزمنة والأمكنة: ١٦٣/١، والأزمنة والأنواء: ٩٧.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٧٠/١.

(٣) عجائب المخلوقات: ٨٠، والأزمنة والأنواء: ١٥٠، والأزمنة والأمكنة: ١٩١/١، ولسان العرب: ١٨٩/٩ (صرف).

(٤) المفصل: ٤٣٨/٨.

(٥) لسان العرب: ٦٤/٩ (خرف).

الثانية من سنيهم ثلاثة عشر شهراً قمرياً، وكانوا يُسمونها الكبيسة، يفعلون ذلك في كل تسع عشرة سنة، سبع مرات، فيستوي لهم بذلك حساب شهور القمر مع حساب الشمس ومنازل القمر على السواء، فتكون شهورهم ثابتة في الأزمنة، غير منتقلة عن أوقاتها التي حُدث فيها من الفصول الأربعة، فإن لم يفعلوا ذلك، صارت شهورهم دائرة في الأزمنة، غير مُستقرّة فيها، يكون الشهر منها في زمن شدة البرد، فلا يلبث حتى يرى بعد ذلك في زمن شدة الحر^(١). وهو ما سنبحثه مُفصّلاً في الفصل الذي عقّدناه للكلام على التّسيء والنّساء.



وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس سنيها على هذا النّحو، وتُسمي التّسيء، أي التأخير، لأن كل سنة كبيسة، إذا زيد عليها شهر، تقتضي تأخير مطلع السنة التي تليها شهراً، فكانت شهورهم بذلك ثابتة في الفصول، ومواسمهم مُستقرّة في الأزمنة، لكل منها زمن معلوم لا يَعدو، لما يتعلّق به من الحقوق والواجبات... ومن مُضطّحاتهم في الجاهلية كَلِمَتا: «الأوز» والأزّز، وكانت دلالتهما على حساب من مجاري القمر، وهو قُصُور ما يدخل بين الشهور والسنين^(٢)... أي الشهور القمرية والسنة الشمسية. ولكنّ المستشرق «نليئو»^(٣)، نفى أن يكون العرب في الجاهلية عرفوا

(١) الأزمنة والأنواء: ٣٠ - ٣٢، ومروج الذهب: ١٨٨/٢، وصبح الأعشى: ٤٢٤/٢ - ٤٢٥، والأزمنة والأمكنة: ١٧٤/١.

(٢) لسان العرب: ٣٠٨/٥ (أز)، و ٣٠٩/٥ (أوز).

(٣) كارلو ألفونسو نليئو: (١٨٧٢ - ١٩٣٨ م)، مستشرق إيطالي، عالم بالجغرافية والفلك عند العرب، عارف بالإسلام ومذاهبه، مُطلع على تاريخ اليمن القديم وخطوطه ولهجاته. درس العربية والسريانية والعبرية، وألقى محاضرات في مصر بالعربية، جُمعت خلاصتها في كتاب سُمي «علم الفلك - تاريخه عند العرب في القرون الوسطى».

النَّسِيءَ، أَوْ وَقَفُوا عَلَيْهِ^(١)، وَعَدَّ أَخْبَارَهُ فِي كُتُبِ الْعَرَبِ مِنْ قَبِيلِ الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ^(٢). وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يَذْخَرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ، أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ بِإِبْطَالِ النَّسِيءِ، وَذَمَّ فِعْلَهُ، وَلَوْلَا وَجُودُهُ لَمْ يَنْتَهَ عَنْهُ، وَلَا أَكَّدَ أَنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا لَا غَيْرَ...

وَلَا أَسْتَبْعِدُّ، فِي غِيَابِ النُّصُوصِ الْوَاضِحَةِ، وَمَعَ التَّشَابُهِ فِي أَسْمَاءِ بَعْضِ الشُّهُورِ وَالْفُصُولِ، أَنَّ يَكُونَ عَرَبُ الْجَنُوبِ قَدْ اتَّخَذُوا، عَلَى شَاكِلَةِ عَرَبِ الْحِجَازِ، تَقْوِيمًا شَمْسِيًّا فِي حِسَابِ السِّنِينَ وَمَعْرِفَةً الْفُصُولِ، وَقَمَرِيًّا فِي حِسَابِ الشُّهُورِ وَمَعْرِفَةِ الْآجَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَعْمَالِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ، وَأَنَّ يَكُونُوا اعْتَمَدُوا الْكَبْسَ، عَلَى نَحْوِ مَا، لِإِلْحَاقِ حِسَابِ الْقَمَرِ بِحِسَابِ الشَّمْسِ.

وَيَقَالُ إِنَّ الْمَصْرِيِّينَ كَانُوا أَقْدَمَ مَنْ اعْتَمَدَ حِسَابَ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ فِي تَقْوِيمِهِمْ، وَكَانَ ابْتِدَاءُ السَّنَةِ عِنْدَهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ كَوْكَبُ الشُّعْرَى الْيَمَانِيَّةِ أَوْ الْعَبُورِ، وَقَدْ شَرُوقَ الشَّمْسُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ. وَكَانَتْ عِدَّةُ السَّنَةِ هَذِهِ ثَلَاثَ مِئَةٍ وَخَمْسَةَ وَسْتِينَ يَوْمًا وَرُبْعَ الْيَوْمِ. وَكَانَتْ الشُّعْرَى تَطْلُعُ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ تَمُوزَ، ثُمَّ لَاحَظَ الْفَلَاحِيُّونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ طُلُوعَ الشُّعْرَى لَمْ يَعُدْ مُتَّفِقًا وَشَرُوقَ الشَّمْسِ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْكَبْسِ أَوْ النَّسِيءِ لِإِلْحَاقِ سَنَةِ الشُّعْرَى بِسَنَةِ الشَّمْسِ^(٣). وَقَدْ ذَكَرَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ فِيمَا بَعْدَ أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ جَعَلُوا شَهْرَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، فَإِذَا انْقَضَتْ الْإِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، أَضَافُوا إِلَيْهَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ يُسَمُّونَهَا أَيَّامَ النَّسِيءِ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ثَلَاثَ سِنِينَ مُتَوَالِيَةٍ، وَفِي الرَّابِعَةِ يَضِيفُونَ سِتَّةَ أَيَّامٍ، أَيْ بِزِيَادَةِ

(١) المِفْصَلُ: ٤٢٧/٨.

(٢) الْأَزْمَنَةُ وَالْأَنْوَاءُ: ٣٢ - ٣٣.

(٣) أَسْمَاءُ الْأَشْهُرِ فِي الْعَرَبِيَّةِ: ٨ - ٩.

يوم تكوّن من رُبْع اليوم في السنين الأربع . وكانوا من قبلُ يتركون هذا الرُّبْعَ إلى أن تجتمع منه أيامُ سنةٍ كاملة، في مُدَّة ألفٍ وأربع مئةٍ وإحدى وستين سنة^(١) . . . ذَكَرْتُ هذا لأؤكدَ أن العرب كانوا قطعاً مُطَّلِعِينَ كذلك على تقويم المصريين، ولا سيما أن طائفةً منهم كانت تعبُدُ الشُّعْرَى، وأن التجارة كانت قائمةً بين الأُمَمَيْنِ، يتردّدُ فيها العربُ إلى مصر، والمصريُّون إلى بلاد العرب.

* * *

(١) صبح الأعشى: ٤٢٦/٢ .

الفصل الثاني

شهور العرب ومواقعها من الفصول

المطلب الأول - شهور العرب، أسماؤها ومعانيها ودلالاتها:

إن الشهور التي نبتغي الحديث عنها في هذا الموضع، هي شهور العرب في مناطق نَجْدِ والحجازِ وتهامة والعروض وما اتصل بها، وهي التي أجمع أهل الأخبار على أنها كانت مُتَّبَعَةً عند العرب في الجاهلية الأخيرة، ثم ثَبَّتَهَا الإسلام على ما كانت عليه، من حيثُ الترتيب والتعاقب، ولكنه أَبْطَلَ النسيءَ، فصارت دائرةً في الفصول، وَخَلَّتْ أسماؤها من معانيها، وباتت لا تعني شيئاً مما وُضِعَتْ في الأصل للدلالة عليه... ولا بُدَّ لنا من الإشارة إلى صعوبة الحديث عن الشهور التي كانت مُتَّبَعَةً عند عرب الجنوب، لأن أسماءها وُجِدَتْ، في النصوص السَّبْيِيَّة والحِمَيْرِيَّة، مُتَفَرِّقَةً، مُتَقَلِّبَةً من المواقع الزمنية التي حُدِّثَ فيها، وما يزال عَسِيراً حتى الآن، تثبيث هذه المواقع في ترتيب زمني يُعِيدُهَا إلى مثل ما كانت عليه. غير أن البحث في معاني بعض أسماؤها، دَلَّ على أن منها ما كان له علاقةً بالمواسم الدينية، ومنها ما له علاقةً بالمواسم الطبيعية، فإنَّ «وَزْخُنْ ذُو الْأَلْت»^(١) مثلاً، معناه

(١) ورخن: إضافة النون أو الميم إلى آخر الأسماء، في اللغات السبئية والحيميرية والبابلية، كالتنوين في العربية، والواو في آخر الكلمات البابلية كالضمة في العربية. فقولهم: وَزْخُنْ، قَبْظُنْ مثلاً، كقولنا: وَزْخٌ، قَبْظٌ... وربما كان شهر ذو الألت يقابل شهر رجب أو المحرم.

شهرُ الإله، و «ذو حجتن» معناه شهرُ الحجّ، وهو يُقابلُ شهرَ ذي الحجة عند عرب الحجاز، و «ذو عَشْتَر» معناه شهرُ عشتار، أو عشتروت، وهي كوكبُ الزُّهرة، وربما كان يُقابل شهرَ أيلول عند البابليين والسريّان... ومن الواضح أن هذه الشهور تُشير إلى بعض المواسم الدينية، وهنالك شهورٌ أخرى تُشير معانيها إلى المواسم الطبيعية، مثل «وَزُخُنْ ذو دَنَّا» وهو من شهور الربيع، و «ذو خَرَفَن» وهو من شهور المطر والشتاء، و «ذو قَيْظُنْ» وهو من شهور الحرّ، ولعله يُقابل شهرَ «رمضان» عند عرب الحجاز، وشهر «حَزيران» عند أهل الشام والعراق. ويلاحظُ أنهم كانوا يُضيفون لفظتي: «قدمن وأخرن» إلى بعض الشهور، وهما بمعنى: المُقدّم أو الأول، والآخر أو الثاني، مثل: «وَزُخُنْ ذو نسور قدمن، ووَزُخُنْ ذو نسور أخرن»، وذلك على غرارِ شهور العرب الأخرى، مثل: ربيع الأول وربيع الآخر، وشهور السريّان، مثل: تشري قِذْم وتشري أحري^(١)، أي تشرين المُقدّم أو الأول، وتشرين الآخر أو الثاني^(٢). وهذا كلّهُ دليلٌ على وحدة الأصول في التقسيم الزمّنيّ عند شعوب العرب جميعاً.

أما الشهورُ السريّانيّة، فمنذ عَمَدَ السريّانيّون حتى لا يلحقهم النسيءُ إلى جَعْل سنتهم إثني عشرَ شهراً استوفوا فيها أيامَ السَنَةِ الشمسيّة كلّها، فكانت وما تزالُ مُتَبَعَةً عند أهل الشام والعراق، وهي ثابتةٌ في الأزمنة التي حَدَثَ فيها لم تتحوّل عنها، لأن حسابها قائمٌ على مسير الشمس، بمقدار

(١) إن الحروف: «ث خ ذ ض ظ غ» غير موجودة في السريّانيّة والعبريّة والكلدانيّة، فالحاء في كلمة «أَحْرَي» هي خاء، فيكون معناها: الآخر. وقد جاءت كلمة «قِذْمُو» في البابلية بمعنى المُقدّم.

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ٢٦ - ٣٠، والمفصل: ٤٤٨/٨ - ٤٥١.

بُزَج من بروج الفلك، وهو ثلاثون يوماً ونصف يوم على التقريب، وقد أُكْمِل الكسْرُ في بعضها فصار واحداً وثلاثين يوماً، وأُسْقِطَ من بعضها فصار ثلاثين يوماً لا غير^(١)، وجُعِل شهر شباط ثمانية وعشرين يوماً، وفي كل رابعة من سنيهم يكبسون به يوماً فيصير تسعة وعشرين يوماً ويُسَمُّون تلك السنة كبيسةً، لأن في كل سنة فضل رُبْع يوم يصير يوماً كل أربع سنين^(٢)... بينما حسابُ شهور العرب قائمٌ على مَسِير القمر، من حين يُفَارِقُ الشمسَ، إلى أن يُفَارِقَهَا المرةَ التالية، فيكونُ بين الحِسَابَيْنِ فرقٌ أَحَدَ عَشَرَ يوماً^(٣)، إنْ لم يَجْرِ كِبْسُهَا صارت شهورُ العرب دائرةً في الفصول الأربعة.

وقد لاحظ أهل الأخبار أن شهورَ العرب، لم تُعَدَّ معانيها، كما في الجاهلية وصَدَرَ الإسلام، تَصِحُّ للدلالة على الزمن الذي حُدِّثَ فيه أصلاً، فرَمَضَانُ مثلاً إنما هو من الرَّمَضِ، أي شدة الحرِّ، وهذا يعني أنه من شهور الصيف، بينما هو اليوم مُتَنَقِّلٌ في كل المواسم الطبيعية، فَعَمَدُوا إلى تَكْلُفِ التفاسير، والتَّزَيُّدِ في المعاني، من أجل تبرير ذلك الدَّوْرَانِ، كعادتهم عندما يُواجِهون أسماء لا يعرفون عن أصلها شيئاً^(٤)، أو لا يُريدون أن يعرفَ الناسُ عنها شيئاً. ومن الممكن رَدُّ أقوالهم في هذا الأمر إلى وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أن العربَ، حينما سَمَّوْا شهورَهم، كانوا من الغفلة بحيث لم يلحظوا أنها ستدور في المواسم والفصول... والآخَرُ: اصطِناعُ مَعَانٍ غريبةٍ لأسماء الشهور، تَخْرِجُ بها عَمَّا وُضِعَتْ للدلالة عليه من أقسام الزمن.

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٩ - ٣٠، ٤٩، ٥١.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٧٢/١، وصبح الأعشى: ٤٢٧/٢.

(٣) صبح الأعشى: ٤٢٤/٢ - ٤٢٥.

(٤) المفصل: ٤٥٩/٨.

والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد أكَدَّ الشَّيْخُ السَّخَاوِيُّ^(١): «أن جُمَادَى سُمِّيَ بذلك لجمود الماء فيه، وكانت الشهور في حسابهم لا تَدُورُ»، أي أن الشهور في الجاهلية كانت ثابتة لا تَدُورُ في الفصول، فعَلَّقَ عليه ابنُ كثير بقوله: «إن شهورهم كانت مَنُوطَةً بِالْأَهْلَةِ، فلا بُدَّ من دَوْرَانِهَا، فلعلَّهم سَمَّوْهُ بذلك أَوَّلَ مَا سُمِّيَ، عند جُمُودِ الْمَاءِ فِي الْبَرْدِ...»^(٢). ومثله قولُ المسعودي، في شَهْرِي جُمَادَى إِنَهُمَا سُمِّيَا بِذَلِكَ «لجمود الماء فيهما، في الزمان الذي سُمِّيَتْ بِهِ هَذِهِ الشُّهُورُ، لأنَّهم لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ يَدُورَانِ، فَتَنْتَقِلُ أَوْقَاتُ ذَلِكَ...»^(٣)، والمعلوم أن الْحَرَّ وَالْبَرْدَ مَوْسِمَانِ ثَابِتَانِ فِي زَمَنِيهِمَا لَا يَدُورَانِ، وهذا دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِ هُوَ لَا جَهْلَ الْعَرَبِ! وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ فِي شَهْرِي رَبِيعٍ إِنَهُمَا إِنَّمَا سُمِّيَا بِذَلِكَ لِإِزْتِبَاعِ النَّاسِ فِيهِمَا، فِي وَقْتٍ تَسْمِيَّتِهِمَا بِذَلِكَ، وَقَدْ لَزِمَهُمَا الْإِسْمُ مَعَ انْتِقَالِ الزَّمَانِ وَاخْتِلَافِهِ^(٤)... مع أنه ذكر في مطلع كلامه أن العرب في الجاهلية كانت تكبسُ، في كل ثلاث سنين، شهرًا^(٥)... ومن المؤكد أنها كانت تفعلُ ذلك لتثبيت شهورها في الأزمنة، ولكنه لم يَقْطُنْ للأمر، لأنه رأى الشهور العربية كما صارت إليه في أيامه، ولم يعلم بأن إِبْطَالَ النَّسِيءِ، أو الكبسِ، هو الذي أَطْلَقَهَا مِنْ حُدُودِ الْأَزْمَنَةِ الَّتِي رُسِمَتْ لَهَا، وَرُتِّبَتْ فِيهَا^(٦)، فقال: إن «شهور الروم

(١) السَّخَاوِيُّ: (٥٥٨ - ٦٤٣ هـ = ١١٦٣ - ١٢٤٥ م)، عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيُّ الْمَصْرِيُّ، أَبُو الْحَسَنِ، عُلِمَ الدِّينَ. عَالِمٌ بِالْقِرَاءَاتِ وَالْأَصُولِ وَاللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ. أَصْلُهُ مِنْ سَخَا بِمِصْرَ، وَسَكَنَ بِدِمَشْقَ، وَتَوَفَّى فِيهَا، وَدُفِنَ بِقَاسِيُونَ. لَهُ مُصَنَّفَاتٌ فِقْهِيَّةٌ وَدِينِيَّةٌ.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/٣٩٥.

(٣) مروج الذهب: ١٨٩/٢.

(٤) المرجع نفسه: ١٨٨/٢ - ١٨٩.

(٥) المرجع نفسه: ١٨٨/٢.

(٦) المفصل: ٤٦٢/٨.

مرسومة على فصول السنة، دون شهور العرب، وشهور العرب ليست مُرتَّبة على فصول السنة، ولا حساب سنة الشمس، بل المحرَّم، وغيره من الشهور العربية، قد يقع تارة في الربيع، وتارة في غيره من فصول السنة^(١). وهذا نفسه ما ذهب إليه القلقشندي، بقوله في شهرئ جُمادى: إنهما سُميا بذلك لجمود الماء فيهما، ثم تذكر أنهما في زَمَنِهِ لا يَتَّبَتَانِ على هذه الحال، فاستدرك قائلاً: «... لأن الوقت الذي سُميا فيه بذلك، كان الماء فيه جامداً لشدَّة البرد»^(٢).

وهكذا، إذا استثنينا السَّخاوي، الذي أدرك أن شهور العرب كان يجري تثبيتها لثلاً تدور في الفصول، فإن الآخرين جميعاً أضافوا الغفلة إلى العرب، وزعموا أنهم لم يَفْطَنُوا لِذَوْرَانِ الشهور القمرية، فما لبثت حتى فقدت أسماؤها معانيها. وأشدُّ غرابة من هذا المذهب، أن بعضهم جعل القتال، والكَفَّ عنه، عِلَّةً في تسمية بعض الشهور بأسمائها! من ذلك زَعْمُهُمْ أن شهر شعبان سُمي بذلك لِتَشَعُّبِ القبائل فيه من أجل الغارات والقتال، أو لكثرة غاراتهم فيه، بعد امتناعهم عنها في شهر رجب المحرَّم، وأن شهر صفر سُمي بذلك لخلو ديارهم منهم حين يخرجون إلى القتال، أو لأنهم كانوا يُغيرون فيه على بلاد يُقال لها الصَّفَرِيَّةُ، وأن شهر ذي القعدة سُمي بذلك لِقُعُودِهِمْ فيه عن القتال^(٣). وكان القتال أمرٌ محتومٌ، أو قدَرٌ مقدورٌ على هذه الأمة، فكان لا بُدَّ لها من تنظيم أوقاته، فجعلت له مواسم ثابتة في

(١) مروج الذهب: ١٩٢/٢.

(٢) صبح الأعشى: ٤٠١/٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣، وصبح الأعشى: ٤٠١/٢ - ٤٠٢، ومروج الذهب: ١٨٨/٢، والأزمنة والأمكنة: ١٦٨/١، ٢٧٧.

شهورٍ مُعَيَّنَةٍ، تخرجُ فيها من ديارها، لِيُغَيَّرَ بعضُها على بعض، فما يزالون على قتالهم وغاراتهم، حتى يَرَوْا هلالَ الشهر الجديد، فيمتنعون من القتال، ويعودون إلى ديارهم! . . . ثم إننا نفهمُ الصَّفَرِيَّةَ أنها مَنسُوبَةٌ إلى الصَّفَر، والنَّسَبَةُ، كما نَعْلَمُ، إلحاقُ آخرِ الإسمِ ياءً مُشَدَّدَةً للدلالة على نِسَبَةِ شيءٍ إليه، فإن كان صدقاً زَعَمُ أهلُ الأخبار، فالصَّفَرِيَّةُ مَنسُوبَةٌ إلى الصَّفَر، مُسمَّاةٌ به، وليس العكس، ويكون كلامُهم في ذلك باطلاً إذن، وتكون الصَّفَرِيَّةُ إسمًا لزمانٍ مُعَيَّن، أو فصلٍ ثابتٍ من فصول السنة، يقع في شهرين صَفَر، وليست قطعاً إسمًا للتفاهات التي زعموها.

لا شك في أن كلَّ هذه المذاهبِ لَغَوٌ، وتَزَيُّدٌ في التأويل، وتكَلُّفٌ للمعاني، ولا أساس لها من الصِّحَّةِ أو الحقيقة، وسَنَتَبَيَّنُ ذلك بوضوحٍ وجلاءٍ في استقراءنا أسماءَ شهور العرب، ومُتَابَعَتِنا أصولَ معانيها في مختلف المراجع، ولا سيما اللغويَّةِ منها، لأن اللغةَ مستودعُ ثراثِ الأمة، وتقاليدها، وثقافتها. وإنَّ لفي تسمية الشهور وترتيبها، وتثبيت مواعيدها في الفصول، وجهاً جَلِيًّا واضحاً من وجوه الارتقاء والتقدُّم.

* * *

①- شَهْرَا صَفَر:

الصَّفَرَانِ شهرانِ من السنة عند العرب في الجاهلية، سُمِّيَ أَوَّلُهُما في الإسلام المحَرَّم^(١). وكان أهلُ الجاهلية يقولون: صَفَرُ الأوَّل، وصَفَرُ الآخِر^(٢). وكان صَفَرُ الأوَّلِ مُحَرَّمًا عندهم، ويبدو أن اسمه كان وقتئذٍ صَفَرًا

(١) لسان العرب: ٤/٤٦٣، وتاج العروس: ١٢/٣٣١ (صفر).

(٢) أخبار مكة: ١/٢٨٣، وصحيح البخاري: ٥/٥١.

الأول المحرّم، بدليل أن فقيه العرب كان، إذا أراد رَفَعَ الحُرْمَةَ عنه وجَعَلَهَا في شهرٍ آخَرَ، يقول: اللهم إني قد أَحَلَلْتُ أَحَدَ الصَّفَرَيْنِ، الصَّفَرَ الأوَّلَ^(١)... وقيل إنه كان يُعْرَفُ أيضاً بشهرِ الله^(٢)، وذكر ابنُ منظور أن النبي عليه السلام سُئِلَ: «أيُّ الصَّوْمِ أَفْضَلُ بعد شهر رمضان؟ فقال: شهرُ اللَّهِ، المحرَّم»^(٣)، أضافه إلى الله تأكيداً لحُرْمَتِهِ. فالمحرَّم نَعَتْ لهذا الشهر، لا إسماء له، وإنما صار في الإسلام له إسماء، لا يُعْرَفُ بغيره^(٤)، لئلاَّ يستمرَّ التقلُّبُ به تحليلاً وتحريماً^(٥). وهو الشهرُ الأوَّلُ من السنة العربية، هكذا كان في الجاهلية، وعلى ذلك أبقاه الإسلام^(٦).

والعلَّةُ في تسمية هذين الشهرين بإضافتهما إلى الصَّفَرِ، لا تخرج عند أهل الأخبار عن أمرين، الأوَّلُ: زَعُمُهم أن العرب كانت في الجاهلية تغزو مواضعَ تمتازُ منها الطعام، تُسَمَّى الصَّفَرِيَّةَ. والثاني: أن ديار العرب كانت تخلو في هذا الوقت من أهلها بخروجهم إلى الغزو أو الحرب^(٧). وعَرَضَ ابنُ منظور لهذه الأقوال، وقد قَطَنَ إلى بعض ما فيها من الخَلَلِ، فحاول سَدُّهُ، فذكر أن بعضهم قال في علَّةِ التسمية: لأنهم كانوا يمتارون الطعامَ فيه من المواضع! ولم يُعَيِّنِ الصَّفَرِيَّةَ، وبعضهم قال: لإضفار مكة من أهلها إذا

(١) السيرة لابن هشام: ٤٤/١.

(٢) ابن جرير الطبري - تاريخ الطبري: ٣٩٠/٢، ولسان العرب: ١٢١/١٢ (حرم)، وأسماء الأشهر في العربية: ٥٦.

(٣) لسان العرب: ٤٣٢/٤ (صفر).

(٤) المفصل: ٤٥٨/٨ - ٤٥٩.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣.

(٦) المفصل: ٤٦٠/٨، ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٧) الأزمنة والأمكنة: ٢٧٧/١، وصبح الأعشى: ٤٠١/٢، ومروج الذهب: ١٨٨/٢، وعجائب المخلوقات: ١١١...

سافروا! وبعضهم قال: لأنهم كانوا يغزون في هذا الزمن القبائل، فيتركون مَنْ لَقُوا صِفْرًا من المتاع، ويقولون صَفَرَ النَّاسُ منا صَفْرًا^(١)... وقد ذَهَبَ الزبيديُّ المذهبَ نفسه^(٢)، ولم نخرج من كلامه بطائل... فما علاقة الصَّفَرِ بامْتِناءِهم الطعامَ من المواضع؟ وماذا لو لم يُسافِرْ أهلُ مكة؟ وإذا سافروا، وظلَّ أهلُ نجدٍ في ديارهم، فهل يكون اسمُ الشهر عند هؤلاء عِمَارَةً، وعند أولئك صَفْرًا؟ وإذا تركوا مَنْ غَزَوْهُمْ مرةً صِفْرًا من المتاع، وقالوا صَفَرَ النَّاسُ منا صَفْرًا، فصار الصَّفَرُ إسمًا للشهر، فماذا لو انهزموا وولَّوا مُذْبِرِينَ من غير متاع، فماذا يُسَمُّون الشهرَ حينئذٍ؟ وماذا لو قَدَّمُوا موعدَ الغزو في السنين التالية، أو أَخَّرُوهُ، أو لم يخرجوا إلى الغزو، هل يُغَيَّرُ اسمُ الشهر، أم يَظَلُّ على حاله؟ وأمَّا الصَّفَرِيَّةُ، فليس في معاجم البلدان موضعٌ بهذا الإسم، ولقد كان ياقوتُ الحمويُّ^(٣)، بِحَاشَاةٍ مُدَقِّقًا، فنَصَّ في أول هذه المادة، أن الصَّفَرَ هو الخُلُوُّ أو الخَلَاءُ، ولم يَزِدْ على أن هنالك جبلًا بنجدٍ إسمه صَفَرٌ^(٤)...

ومن الواضح أن هذا الكلام كلُّه هَذَرٌ لا يُغْبِئُ به، إلا إشارةً للمرزوقي، في موضع آخر، إلى أن شهرَيَّ صَفَرٍ نُسِبَا إلى الزمان الذي يُسَمَّى الصَّفَرِيَّ^(٥)، وهي إشارةٌ جيِّدةٌ، لكنها مقلوبةٌ، فالزمنُ الصَّفَرِيُّ نُسِبَ إلى شهرَيَّ صَفَرٍ، وليس العكس، وهو دليل على ثبات هذين الشهرين وقتئذٍ في مَوقِعَهما من

(١) لسان العرب: ٤٦٢/٤ - ٤٦٣ (صفر).

(٢) تاج العروس: ٣٣٠/١٢ (صفر).

(٣) ياقوت الحموي: أبو عبد الله، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله. مؤرِّخٌ ثِقَّةٌ، من أئمة الجغرافيين والمؤرِّخين، عالمٌ بالأدب واللغة. أشهر كتبه: معجم البلدان. توفي سنة (٦٢٦ هـ).

(٤) معجم البلدان: ٤١٣/٣.

(٥) الأزمدة والأمكنة: ١٦٨/١.

الزمن... وإلا فكرة أخرى هي خُلُو الديار من ساكنيها، ولكن لغرض آخر غير القتال والغزو. ويجب علينا إذا أردنا التماس العلة الصحيحة وراء تلك التسمية، أن نعود أولاً إلى فقه اللغة، ثم إلى ما جرت به عادة العرب في مواسمهم. فإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا فيها ثلاثة معانٍ رئيسية تدلُّ عليها كلمة «صَفَر»: الأول - الصُّفْرَةُ، وهي لونُ الأصفر، الثاني - الصُّفُورَةُ، وهي الخُلُو والفراغ، والثالث - الصَّفِيرُ^(١)، وهو حِدَّةُ الصَّوْتِ، كالصوت الخارج عن ضَغْطِ ثَقْبٍ^(٢). وإذا رجعنا إلى ما جرت به عادة العرب في مواسمهم، وجدنا أن لهم مَوْسِمَيْنِ للظَّغْنِ، والظَّغْنُ هو الارتحالُ عن الديار، طلباً للكَلَأِ، وتَتَبُّعاً لمساقط الغيث، واجتناءً للثمار، ويُسمَّى أيضاً موسمَ التَّبْدِي أو التَّرْبُعِ، لأنه مُرَاجَعَةٌ للبداوة، وانتجاعٌ للمَرَابعِ في البوادي والأرياف. فأمَّا الموسم الأول: فيقعُ في الخريف، بين إزبار القَيْظِ وإقبال الشتاء، وقد سَمَّتهُ العربُ تَبْدِيًا، لأنه خروجٌ إلى البادية. كما سَمَّتهُ تَرْبِعًا، لأن الخريفَ عندهم هو الربيعُ الأوَّلُ، بما يكون فيه من هواءٍ طيِّبٍ، ووقوعِ لأوَّلِ الغَيْثِ، وإذراكِ للثمار، واجتناءِ للنخل. وأما الموسمُ الثاني: فيكونُ بين إزبار البَرْدِ وإقبال الصيف، وهو ربيعُ الزَّهْرِ والأنوار والكمأة^(٣)، يرتحلون فيه عن منازلهم إلى الأرياف، والبوادي، ويكونُ فيه إزراقُ الشجر ولِقَاطُ الكمأة، ورَعْيُ الكَلَأِ، وحَصَادُ الحِنطة والشعير، وكانوا يُسمُّونه: الربيعَ الثاني وهو يقعُ غالباً بين سُقوطِ منزل «الصَّرْفَةِ» في التاسع من آذار - مارس، موعدِ انصرافِ البَرْدِ، وطلُّوعِ منزل «الهَقَّة» موعدِ التهابِ الحرِّ في

(١) لسان العرب: ٤/٤٦٢، ٤٦٤، وتاج العروس: ١٢/٣٣٢ (صفر)، وفقه اللغة: ٥٨.

(٢) ابن الطُّحَّان - مخارج الحروف وصفاتها: ٩٠، ٩٤.

(٣) ابن قتيبة - الأنواء: ٩٦ - ٩٨، والأزمنة والأمكنة: ١٢٥/٢ - ١٢٩، و ١٧٤/١، ولسان

العرب: ٨/١٠٣، وتاج العروس: ٢١/٣٤ - ٣٥ (ربيع).

السابع من حزيران - يونيو، وانتهاء موسم التبدّي الثاني^(١).

وما يَعْنِينَا هنا هو موسمُ الظَّغْنِ الأول... ذلك أن العربَ جَعَلَتِ الخريفَ أوَّلَ الأزمنة، وافتتحت سنتها به^(٢)، مثلما جعلت شهرَي صَفَرٍ أوَّلَ الشهور، وابتدأت سنتها بهما، وبذلك يكون الزمنُ الذي يقعُ فيه شهرًا صَفَرٍ هو فصلُ الخريف، ويكون شهرًا صَفَرٍ الزمنَ الذي يقعُ فيه موسمُ التَّربُّعِ الأوَّل، وارتحالُ الناس من ديارهم في المحاضر إلى مَرَايِعهم في البوادي. ومن ذلك قولُ النابغة الذبياني^(٣):

لقد نَهَيْتُ بني دُيَّانَ عن أَقْرِ وعن تَرْبُعِهِمْ في كُلِّ أَصْفَارٍ^(٤)

أراد أنه نهى قومه عن تَرْبُعِ وادي أَقْرِ^(٥)، في كُلِّ شهور صَفَرٍ، وهو دليلٌ على أن موسمَ التَّربُّعِ في الخريف مَوْعِدُهُ ثابتٌ في شهرَي صَفَرٍ من كُلِّ سنة، وأن زمنَ شهرَي صَفَرٍ ثابتٌ في فصل الخريف... ومنه أيضاً قولهم في صَفَرٍ: صَفَرُ الخَيْرِ^(٦)، لما يكونُ فيه من الطَّلِّ والتَّدْيِ والكَلَا والغَيْث. ولو لم يكن الخَيْرُ ثابتاً عُمومُهُ في هذا الشهر، لَمَّا أُضيفَ صَفَرٌ إلى الخَيْر... وعلى هذا، فَإِنِّي أرى أن وجه التسمية في شهرَي صَفَرٍ قائمٌ على

(١) الأزمنة والأَنْوَاء: ١٥١، ١٥٧-١٥٨، ١٦٥، ١٧٧، (والصَّرْفَةُ والهَقْعَةُ من منازل القمر).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٧٤/١.

(٣) النابغة الذبياني: أبو أَمَامَة، زياد بن معاوية، من بني ذبيان، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كان قاضي الشعر في سوق عكاظ. توفي نحو (٦٠٥ م).

(٤) تاج العروس: ٣٣١/١٢ (صفر)، ومحمد زكي العشماوي - النابغة الذبياني: ٣٩.

(٥) وادي أَقْرِ: من ديار غطفان، قريب من وادي السَّرْبَةِ، مملوءٌ حمضاً ومياهًا، حَمَاهُ الملكُ النعمانُ بن الحارث الغساني، فترَبَّعَهُ بنو ذبيان من غير إذن، فنهاهم النابغة عن ذلك خوفَ بطش الملك بهم.

(٦) أسماء الأشهر في العربية: ٥٩.

المعاني الثلاثة جميعاً، فديارُ العرب كانت تَصْفِرُ منهم فيهما حقاً، ولكنْ بازتحالهم عنها إلى المرباع والمناجع في البوادي، وليس للغزو أو القتال. والصُّفْرَةُ هي اللونُ الذي يغلبُ على أوراق الشجر في الخريف، ثم ما تَلَبَّثُ حتى تَصْفِرَ فيها ريحُ الشتاء، وتَذُرُّوها. ويُقال إن الشعوب السلافية كانت تُسمِّي تشرينَ الأول (أكتوبر): الشهر الأصفر، والأنكلوسكسون يُسمُّون تشرينَ الثاني (نوفمبر): شهرَ الريح^(١). . . . وأخيراً، إذا كان ابتداءُ فصل الخريف في نحو الواحد والعشرين من أيلول (سبتمبر)، فقد كان شهراً صَفِرَ يقعان إذن بين شهري أيلول وتشرين الثاني (سبتمبر ونوفمبر)، ثم صاراً فيما بعدُ يُوافقان في ظَرْفَيْهما شهريَّ تشرين الأول وتشرين الثاني (أكتوبر ونوفمبر).

وهناك دليلٌ آخرُ على أن الصُّفْرَةَ زمنٌ يكون في الخريف وأوائل البرد، ويؤكد أن موقعَ شهرَي صَفِرِ الأوَّلِ والآخرِ هو موقعُ شهرَي تشرين الأول والثاني (أكتوبر ونوفمبر) أو هو بالتحديد من (٢٣) أيلول - سبتمبر إلى (٢٠) تشرين الثاني - نوفمبر. . . . فقد جاء في الحديث: أن قادماً قَدِمَ عليه من مكة، فقال: كيف تركت الحَزْوَرةَ؟ قال: جادها المطرُ، فأغْفَرْتُ بطحاؤها^(٢). . . . أي أن المطر نزل عليها حتى أغْفَرَ رِثْمُها، ولا يُغْفَرُ الرِثْمُ إلا في الصُّفْرَةِ.

والحَزْوَرةُ: الرايةُ الصغيرة، وكانت بمكة موضعَ سوقها ثم دخلت في المسجد^(٣). . . . والرِثْمُ: من شجر الحَمْضِ، كان في بطحاء مكة. وأغْفَرَ رِثْمُها: أي أخرج مَغَافِرَهُ. والمَغَافِرُ: سائلٌ صَمْغِيٌّ شبيهٌ بالناطِفِ يسيلُ من شَجَرِ الرِثْمِ، من أطراف عِيدانِها، مثل الدبس في لونه، وهو حلْوٌ يؤكل،

(١) أسماء الأشهر في العربية: ١٤.

(٢) اللسان: ٢٨/٥ (غفر).

(٣) ياقوت الحموي - معجم البلدان: ٢٥٥/٢.

واحِدُهَا مُغْفُورٌ. ويقال: خرج الناسُ يَنْغَفُّون أي يَجْتَنُّون المغافيرَ من شجره...

والمهمُّ في هذا الخبر قولُهم من بَعُدُ: وإنما يُغْفَرُ الرِّمْتُ في «الصَّفَرِيَّة» إذا أُوْرَسَ... وقولُهم: كُلُّ شَجَرِ الحَمْضِ يُورِسُ عند «الْبَرْدِ»، والرِّمْتُ والعُرْفُطُ والطلْحُ من الحمض^(١)... وأُوْرَسَ الرِّمْتُ: أي اصْفَرَّ ورقه بعد النُّضْج والإدراك، والوْرَسُ أيضاً شيءٌ اصْفَرَّ يخرجُ على الرِّمْتُ بين آخر الصيف وأوّل الشتاء^(٢).

فانظر إلى هذه النصوص كيف حَدَّدَتْ، بدقَّةٍ ووضوح، زمنَ الصَّفَرِيَّة عند العرب، بين آخر الصيف وأوّل الشتاء، أي كما قلنا في زمن الخريف، حينما يبدأ البردُ، فيَصْفَرُّ الورَقُ، وينضجُ الثمر... ومن طرائف العرب أنهم سَمَّوْا منزلَ القمر الذي يطلعُ نحو منتصفِ شهر تشرين الأول (أكتوبر)، منزلَ «العَفْرِ»^(٣)، ولعلَّ ذلك لأن أشجار الحمضِ تُغْفَرُ فيه. وهو ثلاثة أنجُم صِغار تقعُ في بُرْج الميزان، والمعروف أن برج الميزان في النظام الشمسيّ أوّلُ بروج الخريف، وابتدأؤه نحو الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر)، وأعتقد أن في هذا كفاية...

* * *

② - شَهْرَا رَبِيع:

وهما الشهرانِ الثالثُ والرابعُ في سنة العرب. والشهورُ كُلُّها تُذكر

(١) تاج العروس: ٢٥٢/١٣ - ٢٥٣، واللسان: ٢٨/٥ - ٢٩ (غفر).

(٢) اللسان: ٢٥٤/٦ (ورس).

(٣) اللسان: ٢٩/٥ (غفر).

مُجَرَّدَةٌ، إلا شهري ربيع، يجب حين ذِكْرِهِما إضافة كلمة شهرٍ إليهما، فلا يقال فيهما إلا شهرُ ربيع الأول، وشهرُ ربيع الآخر. فإذا قيل: ربيع الأول، أو ربيع الثاني مُجَرَّدًا، انصرف القول إلى معنى آخر^(١). . . فالربيع عند العرب لفظة لها دلالة عامة على مَعَانٍ، لا يحدّها زمنٌ واحدٌ مُعَيَّنٌ من أزمّة السنة، على نحو ما هو معروفٌ من دلالة فصل الربيع، الذي يأتي بعد الشتاء، وقبل الصيف. فالطَّلُ، والتَّندِي، والمطرُ، والسَّحَابُ، والتَّوَرُّ، والعُشْبُ، والكَمَاءُ، والثمارُ، كلّها ربيع^(٢). . . وعلى ذلك فالخريفُ ربيعٌ، والشتاءُ كلّ ربيعٍ، ومُقَدَّمُ الصيفِ ربيع^(٣). . . فما العِلَّةُ إذن في اختِصاصِ هذين الشهرين باسمِ الربيع، مع أنَّ معانيه أوسعُ من أن تُحدَّ فيهما دون سائر الشهور؟

لا نريدُ أن نتوقّف كثيراً عند مَنْ قال، إنهما حُدّا في زمن الربيع حين تسميتهما، فلمّا دارا في الفصول، لَزِمَهُما الإِسْمُ، وضاعَتْ دلالتُهُ^(٤). . . فهو كلامٌ يحملُ بطلانَه في أحشائه، فإن كانا حُدّا في فصل الربيع، وهو بعد شهري جُمادى، فكيف قَفَزَا من بين الشهور، ووقَعَا بعد شهري صَفَرٍ؟ ذلك أن شهورَ السنة القمرية، وإن كانت تَدُورُ في الفصول الأربعة جميعاً، لكنَّ الشهرَ منها يظلُّ ثابتاً في موضعه من الترتيب الذي يَنْتَظِمُ شُهورَ السنة، ولا يمكن أن يتحوَّلَ عن موضعه إلى موضعٍ آخر، على غير ما رُسِمَ له في تتابُعِ تلك الشهور! . ونقل القلقشندي قولاً آخر، غريباً عجيباً، ذكر فيه أن شهري

(١) لسان العرب: ١٠٣/٨، وتاج العروس: ٣٤/٢١ (ربيع).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٦٤/١، وصبح الأعشى: ٤٠١/٢، ولسان العرب: ١٠٣/٨ - ١٠٤ (ربيع)، و ٩٣/٩ (خرف)، و ٤٢١/١٤ (شتا).

(٣) تاج العروس: ٣٤/٢١ - ٣٥.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ١٦٧/١، وتاج العروس: ٣٤/٢١، ولسان العرب: ١٠٣/٨ (ربيع).

ربيع سُمِّيَا بذلك لأن العرب كانت تُحَصِّلُ فيهما ما أصابته في صَفَر^(١)، وهو مُتَابِعَةٌ لقول من جَعَلَ شهرَ صَفَرٍ للغارات والغزَوِ، وَحُجَّتُهُ في ذلك أن الخِصْبَ من معاني الربيع... أما القولُ بأنهما سُمِّيَا ربيعاً باسم المطر الواقع فيهما^(٢)، فليس فيه غَنَاءٌ، لأن المطر عند العرب ربيعٌ متى جاء^(٣). ويبقى هنالك قولٌ أخير، جديرٌ بالتوقُّفِ عنده، فيه إجماعٌ على أن هذين الشهرين سُمِّيَا ربيعاً: «لازْتِبَاعِ النَّاسِ فيهما، أي إقامَتِهِمْ»^(٤)، فما الازْتِبَاعُ؟ وما الإقامة؟ وكنا، في كلامنا على شهري صَفَرٍ، عَرَفْنَا الازْتِبَاعَ ارتحالاً لا إقامة! أترى سِرَّ العِلَّةِ يكْمُنُ هنا؟ رُبَّما!...

وعلى ذلك يجبُ، من أجل المُضِيِّ في التماسِ الجوابِ، أن نُقَلِّبَ معاني الربيع عند العرب مرَّةً أخرى، لعلَّنا نجدُ ما يُعَيِّنُنَا على التفريق بين عُمومِيَّتِها، وَخُصُوصِيَّةِ دلالتها في المُصْطَلَحِ، ولا نكادُ نَعُثِرُ في المصطلح إلا على قولهم: الربيعُ عند العرب ربيعان: ربيعُ الشهور، وربيعُ الأزمنة. فربيعُ الشهور شهرانِ بعد صَفَرٍ، سُمِّيَا بذلك لأنهما حُدَا في هذا الزمن. وربيعُ الأزمنة ربيعان: الربيعُ الأوَّلُ، وهو فصلُ الخريف، وفيه تُدْرِكُ الثمارُ، وتبدؤُ السماءُ تَقْطُرُ الطَّلَّ، والأرضُ تَنْدَى. والربيعُ الثاني، وهو الفصلُ الذي يتلو الشتاء، وتُسَمِّيهِ العربُ صيفاً، ويأتي فيه التَّوَرُّ والنباتُ والكمأة. وكلُّهم مُجْمِعُونَ على أن الخريفَ هو الربيع^(٥)... فإذا قيل: الربيعُ الأوَّلُ، مُجَرِّداً،

(١) صبح الأعشى: ٤٠١/٢.

(٢) تاج العروس: ٣٨/٢١ - ٣٩ (ربيع).

(٣) لسان العرب: ١٠٣/٨ (ربيع).

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢٧٧/١، وصبح الأعشى: ٤٠١/٢، ومروج الذهب: ١٨٨/٢، وتفسير

ابن كثير: ٣٩٥/٣، وعجائب المخلوقات: ١١١.

(٥) تاج العروس: ٣٣/٢١ - ٣٤.

فمعناه فصلُ الخريف، وإن قيل: الربيعُ الثاني، فمعناه الفصلُ الذي يأتي بانقضاء الشتاء. ولا يُمكن أن ينصرفَ معنى كلٍّ منهما إلى الشهر، إلا إذا أُضِيفَتْ إليه كلمةُ شهرٍ، فينصرفَ معناه إذ ذاك إلى شهرِ ربيعِ الأوَّل، أو شهرِ ربيعِ الآخر. وهذا هو مِغْيَارُ التفريق بين تلك الأربعة، وهو مِغْيَارُ لَفْظِي لا أكثر، ليس فيه حقيقةُ الفرقِ بينها. فشهرًا صَفَرٍ يَقَعَانِ في الخريف، وهو الربيعُ الأوَّلُ عند العرب، فهما إذن من شهور الربيع، وشهرًا ربيعٍ يَقَعَانِ بعدهما، فهما استمرارٌ لهما في الزمن، وفي طبيعةِ الفَصل، فما الْعِلَّةُ في تَمْيِيزِ شهري ربيع بهذا الاسم، دون شهري صَفَرٍ، ودون شهور الصيف كذلك، وهي الربيعُ الثاني؟ وما الفرقُ بين هذا الربيع وذاك الربيع؟

ونعودُ إلى عُمومِيَّةِ معاني كلمة: رَبِيعَ، وننظرُ فيها، فنَجِدُ أن بالإمكان رَدَّها إلى أربعة أصولٍ رئيسة:

الأول: الغَيْثُ، بمعنى التَّدى والمَطَرِ والسَّحَابِ.

الثاني: الخِصْبُ، بمعنى كثرة العُشبِ والنبات، والثمار، ونتاجِ الأنعام.

الثالث: الإقامة، بمعنى السَّكَنِ أو التوطَّنِ والاطمئنانُ فيه.

الرابع: العَدَدُ أربعةٌ أو أَرْبَعُونَ وما في حُكمه كالأربعاء، والمُرَبَّع، والرُّبَاع، والرُّبْع^(١)...

ثم نعودُ إلى ما ذكرناه، في كلامنا على شهري صَفَرٍ، عن وُجُودِ مَوْسِمَيْنِ كبيرين عند العرب، يرتحلون فيهما عن ديارهم، للترُّبُعِ والانتجاعِ في البوادي، وقد عَلِمْنَا أن المَوْسِمَ الأوَّلَ منهما يَقَعُ في فصل الخريف، أي فيما يُسَمُّونَه الربيعَ الأوَّلَ، ثم لا يزالون في النُّجْعَةِ حتى طُلُوعِ منزلِ «السَّوْلَةِ»

(١) لسان العرب: ٩٩/٨ - ١٠٨، ونتاج العروس: ٢٢/٢١ - ٥٩ (ربيع).

نحو التاسع من كانون الأول^(١)، قَدْخَلَ الشتاء، وأَوَّلُهُ أربعون ليلةً يشتدُّ فيها البردُ بكلِّ مكانٍ^(٢)، وحينئذٍ ينتهي الموسمُ، ويتتابعُ الناسُ في العودة إلى بيوتهم، للإقامة فيها، إِيْتَاءً للبرد، وطلباً للدفء^(٣). ثم لا يكون ارتحالٌ إلى البادية أو الريف، للنُّجعة والترُّع، إلا بانقضاء الشتاء، وابتداء فصل الربيع الثاني. ذلك أن العرب كانت تُسمِّي المُجَاعَةَ شتاءً، فالمُجَاعَاتُ أكثرُ ما تُصِيبُهُمْ في الشتاء البارد، ويُسَمُّون الشتاءَ جَدْباً، لأن الناس يلتزمون فيه البيوتَ، ولا يخرجون للانتجاع^(٤). وما كان من غَيْثٍ يَرْجُوهُ إِذْ ذَاكَ، فهو «غَيْثٌ مُزْبِعٌ، يَحْمِلُ الناسَ على أن يَرْبِعُوا في ديارهم، ولا يَرْتَادُونَ»^(٥) مواقع المطر في البادية، لأن الغَيْثَ المُزْبِعَ، يكون عاماً، مُغْنِياً لهم عن الازْتِيَادِ والنُّجعة^(٦)، لِعُمُومِهِ البلادَ إِنْ صَدَقَ نَوْءُهُ، فيقيمون في مَرَايِعِهِمْ حيث كانوا وكانت^(٧)، ولا يلزمُ من الارتباع، أو الترُّع، أن يكون دائماً في البادية، ولا سيما في أيام البرد والشتاء.

وبذلك نفهم قولهم: إن شهري ربيع سُمِّيَا بالربيع «لازْتِبَاعِ الناسِ فيهما، أي إقامتهم»، فالازْتِبَاعُ فيهما يكون بالإقامة، حيث تكونُ ديارُهُمْ أو محاضِرُهُمْ أو مَرَايِعُهُمْ، وليس بالازْتِحَالِ إلى البادية، كما في موسِمَي الربيع

(١) عجائب المخلوقات: ٨٢.

(٢) وتُسَمَّى هذه الليالي في بلاد الشام: مُزْبَعَانِيَّةُ الشتاء! لاحظ كلمة مُزْبِعَ كيف صارت في المُصْطَلَحِ الشامي.

(٣) الأزمنة والأنواء: ١٧٧، ١٤٢، وصبح الأعشى: ٤١٢/٢.

(٤) لسان العرب: ٤٢٢/١٤ (شتا).

(٥) تاج العروس: ٥٥/٢١.

(٦) لسان العرب: ١٠٤/٨.

(٧) تاج العروس: ٥٠/٢١.

الأول والربيع الثاني... وَيَغْلِبُ في اعتقادي أن يكون المُتَرَبِّعُ، أو المُتَرَبِّعُ في البادية عامّاً، ينزله الناسُ في مواسم الربيع، ويشترون فيه، وَيَتَجَاوِزُونَ. أما الرَّبْعُ، أو المُتَرَبِّعُ فيغلبُ أن يكون خاصّاً بأهله، ملكاً لهم، لا يُنَازِعُهُمْ فيه أحدٌ، وهو المنزلُ عادةً، ودارُ الإقامة، والمحَلَّةُ، ومنه قولهم: يَرَبْعُونَ، أي يُقيمون في رَبْعِهِمْ، أو مَرَابِعِهِمْ، عن الازتيادِ والنُّجعة، لعموم الغَيْثِ^(١). أي لعلَّةِ عُموم الغيث كلَّ الرَّبَاعِ.

وهكذا بات واضحاً، أن الربيع في فَضْلِي الربيع الأول والربيع الثاني عند العرب، إنما هو موسمُ ازتحالٍ عن المحاضِرِ إلى المناجع، وَجْهُ التسمية فيه قائمٌ على معاني الغيث والتَّدى والخُصْب. وأن الربيع في شهرَي: ربيع الأول وربيع الآخر، إنما هو زمنُ إقامةٍ في المنازل، واطمئنانٍ بها، وَجْهُ التسمية فيه قائمٌ على معاني: الغَيْثِ، والإقامة، وأزْبَعِيَّاتِ الشتاءِ القاسية، جميعاً.

وأرى أن شهرَي ربيع عند العرب كان يُقَابِلُهُما شهرا كانون عند إخوانهم أهل الشام (ديسمبر ويناير)، وَجَدُرُ «كَنْ» ساميٌّ مُشْتَرِكٌ، من معانيه: الاستقرارُ والإقامةُ والثباتُ^(٢)، والِكِنْ في العربية هو البيتُ، والكانونُ: المَوْقِدُ والمُضْطَلَى^(٣)، وهذا يعني أنَّ هذين الشهرين سُمِّيَا بذلك، لأنهم كانوا يرجعون فيهما إلى أَكْثَانِهِمْ، يسترون بها من المطر والبرد، وَيَضْطَلُّونَ بنار الكانون طلباً للدفء. وهكذا يكون الارتباعُ في شهرَي ربيع بمعنى الإقامة في البيوت، كَالْكَنْ في شهرَي كانون.

* * *

(١) لسان العرب: ١٠٢/٨، ١٠٤، وتاج العروس: ٢٣/٢١، ٢٤، ٥٠ (ربيع).

(٢) أسماء الأشهر: ٣٣.

(٣) لسان العرب: ١٣/٣٦١ - ٣٦٢ (كَنْ).

(٣) - شَهْرَا جُمَادَى :

وهما الشهرانِ الخامسُ والسادسُ من شهور العرب، وكانوا في الجاهليَّة يقولون: جُمَادَى خمسة، وجُمَادَى سِتَّة. فأما جُمَادَى خمسة فهي شهرُ جُمَادَى الأولى، وهو الخامسُ من شهور السنة، وأما جُمَادَى سِتَّة فهي شهرُ جُمَادَى الآخرة، وهو تمامُ سِتَّة أشهرٍ من أوَّلِ السنة^(١). . . . ومنه قولُ الشاعر ليبيد^(٢):

حتى إذا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةَ جَزْءَ فَطال صِيَامُهُ وصِيَامُهَا^(٣)

أضاف جُمَادَى إلى سِتَّة، وأراد جُمَادَى الآخرة، لأنها تمامُ سِتَّة أشهرٍ^(٤)، ابتداءً من شهر صَفَرِ الأوَّلِ المحَرَّم. ويُعَدُّ الجُمَادَيَانِ من شهور البردِ والتَّدى والشتاءِ عند العرب، ومن ذلك قولُ شاعرهم يصفُ شِدَّةَ البردِ، وكثرة الأنداءِ في إحدى ليالي جُمَادَى:

وليلةٍ من جُمَادَى ذاتِ أنْدِيَةٍ لا يَبْصِرُ العبدُ في ظُلُمَانِهَا الطُّنْبَا^(٥)
لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ حتى يَلْفَ على خرطومِهِ الذَّنْبَا^(٦)

(١) لسان العرب: ١٢٩/٣ - ١٣٠ (جمد).

(٢) ليبيد بن ربيعة: أبو عقيل العامري، شاعر جاهلي من الفرسان الأشراف. من أصحاب المُعلقات، كان كريماً، نذر أن لا تَهْبُ الصُّبَا، إلا نَحَرَ وأطعم الناس. أدرك الإسلام، وأسلم، وهذا البيت من مُعلَّفته المعروفة. توفي نحو (٦٦١ م).

(٣) سَلَخَ: الشهر، أي خرج منه بعدما أمضاه جزء، أي مُجْزَأً، يَسْلُخُ كل ليلةٍ جُزْءاً من الشهر حتى تكاملت لياليه.

(٤) أبو بكر ابن الأنباري - شرح القصائد السبع: ٥٤٦، ولسان العرب: ٢٥/٣ - ٢٦ (سلخ)، وتاج العروس: ٥١٩/٧ (جمد).

(٥) الطُّنْبُ: حبلُ الخَبَاءِ، وما يُشَدُّ به البيتُ من الجبال.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣، والأزمنة والأمكنة: ١٦٨/١.

ولكنَّ الأخباريين، كما أشرنا من قبل، لما وجدوا أن شهريَّ جُمادى صارا يأتیان في شِدَّةِ الحرِّ، كما في البرد، عَزَّوَا ذلك كمادتهم إلى جهل العرب بدَوَّرانِ الشهور القمرية، مع إطباقهم جميعاً على أنهما سُمِّيَا بذلك: نَجْمُودِ الماءِ فيهما من البرد والشتاء...^(١)، بل إن بعضهم ذهب إلى أن جُمادى شِدَّةُ القُرِّ... وفيها كان يكونُ أوَّلُ المطرِ، وحُجَّتُهُ أن الشتاء هكذا كان في ذلك الزمان^(٢). وبعضهم نظَّر فوجد كثرةَ ذِكرِ العرب شهريَّ جُمادى، إمَّا ببرد الزمان، أو بوفرة الأندية والجَمَدِ، ولم يتفق أن وُصِفَا بالحرِّ قطُّ، فأراد أن يُبرِّزَ وقوعهما في زمانِ الحرِّ، بعد إبطالِ الكبسِ ودَوَّرائيهما في الأزمنة، فزعم أن «جُمادى عند العرب الشتاء كُلُّه، في شهريَّ جُمادى كان الشتاء، أو في غيرهما...»^(٣)، ولكن هذا الزَّعم لا يُوقَفُ. تتقالُ الشهور القمرية في الفصول، فإن كانت جُمادى إسمًا للشتاء، أو كانت سماءً لِشهرٍ منه، فستكونُ بالدَوَّرانِ إسمًا، يحملُ معنى البرد الشديد، على مَنْ يَقَعُ في الحرِّ الشديد. وأمَّا القولُ بأن «الشتاء عند العرب جُمادى، نَجْمُودِ الماءِ فيه»^(٤)، فمعناه أن فصلَ الشتاء كُلُّه كشهريَّ جُمادى في الجَمَدِ، وأن الماءَ يجمدُ في الشتاء جُمُودَةً فيهما، أو أنه جعل الجَمَدَ علامةً للشتاء، فما لم يكن جَمَدٌ فلا شتاء. ويبدو أن كلمةَ الجَمَدِ، وما وُصِفَ به شهرًا جُمادى من البرد الشديد، حَمَلَتِ البعضَ على تقديم مَوَاقِعهما في زَمَنِ الشتاء، وجَعَلِهِ من منتصفِ كانون الأول إلى منتصفِ

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٣٩٥، والأزمنة والأمكنة: ١/١٦٨، ٢٧٧، وصبح الأعشى: ٢/٤٠١، ومروج الذهب: ٢/١٨٩، وعجائب المخلوقات: ١١١، وتاج العروس: ٧/٥١٩.

(٢) شرح القصائد السبع: ٥٤٤.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٨.

(٤) تاج العروس: ٧/٥٢٠، ولسان العرب: ٣/١٣٠ (جمد).

شباط - فبراير^(١)، مُسْتَنْدًا إِلَى أَنَّ الْجَمَدَ هُوَ الثَّلْجُ وَمَا جَمَدَ مِنَ الْمَاءِ، وَأَنَّ الْعَرَبَ أَرَادُوا هَذَا الْمَعْنَى دُونَ غَيْرِهِ، مِنَ التَّسْمِيَةِ!



والواقع أنني لا أتفق مع من ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْجَمَدَ بِمَعْنَى الثَّلْجِ وَجُمُودِ الْمَاءِ، هُوَ وَحْدَهُ وَرَاءَ تَسْمِيَةِ الْعَرَبِ هَذَيْنِ الشَّهْرَيْنِ بِجُمَادَى، فَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّهُمْ ذَهَبُوا فِي تَسْمِيَةِ الشِّتَاءِ مُجَاعَةً، وَقَحْطًا، لِأَنَّهُ يُلْزِمُهُمُ الْإِقَامَةُ فِي بَيْوتِهِمْ، لَا يَبْرَحُونَهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ، وَيَخْرُثُهُمْ مِنَ الثُّجَعَةِ وَالْأَزْتِيَادِ. وَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنَّهُمْ سَمَّوْا الشِّتَاءَ، عَلَى الْمَجَازِ أَيْضًا، جُمَادَى لَمَّا يَقَعُ فِيهِ مِنْ جَمَدٍ، وَلِإِعْلَافٍ أُخْرَى، فَوْقَ الْجَمَدِ، يُمَكِّنُ أَنْ تَتَبَيَّنَ مِنْ مُرَاجَعَةِ مَعَانِي الْجَمَدِ... وَمِنْ أَقْوَالِ الْعَرَبِ: أَجَمَدَ الْقَوْمُ، إِذَا قَلَّ خَيْرُهُمْ، وَبَخِلُوا... وَسَنَةُ جَامِدَةٌ: لَا كَلًّا فِيهَا، وَلَا خِصْبًا، وَلَا مَطَرًا... وَأَرْضٌ جَمَادٌ: لَمْ يُصِبْهَا مَطَرٌ... وَشَاةٌ جَمَادٌ: لَا لَبَنَ فِيهَا... وَرَجُلٌ جَمَادٌ وَمُجَمِدٌ: بَخِيلٌ. كَمَا قَالُوا فِي الْمُجَمِدِ: الرَّجُلُ الْبَخِيلُ الْمُتَشَدِّدُ، أَيُّ أَنَّهُ أَمِينٌ مَعَ شُحٍّ، لَا يَخْدَعُ... وَقَالُوا: عَيْنُ جُمَادَى، أَيُّ جَامِدَةٌ لَا تَدْمَعُ^(٢)... وَمِنْ قَوْلِهِمْ: شَتْوُ جُمَادَى، أَيُّ شِتَاءٌ فِيهِ جَمَدٌ وَبَرْدٌ، وَلَكِنَّهُ بَخِيلٌ لَا يُنْطَرُ. لَكِنْ هَذَا يَجِبُ أَنْ لَا يَصْرَفْنَا عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مَوْسِمَ التَّرْبُيعِ الثَّانِي عِنْدَ الْعَرَبِ يَبْدَأُ فِي جُمَادَى، وَلَعَلَّهَا الْآخِرَةُ، وَحَيْثُ يَكُونُ اجْتِنَاءُ الْكَمَاءِ، وَإِيرَاقُ الشَّجَرِ.

ويبدو من أشعار العرب أَنَّ جُمَادَى وَصِفَتْ بِكَثْرَةِ الْأَنْدِيَةِ وَشِدَّةِ الْبَرْدِ^(٣)، عَلَى قِلَّةٍ فِي الْمَطَرِ غَالِبًا. وَلَيْسَ هَذَا غَرِيبًا فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،

(١) أسماء الأشهر في العربية: ٦٥.

(٢) لسان العرب: ١٢٩/٣ - ١٣١ (جمد).

(٣) الأزمدة والأمكنة: ١٦٨/١.

فبَادِيَّتْهَا تكون في ليالي الشتاء شديدة البرد، تهبطُ فيها درجة الحرارة: حَب - إلى الصفر، ولا سيما في أجزائها الشمالية. وتزداد الرطوبة فيها ليلاً، وتَنْقُصُ نَدَى يكادُ يُغْطِي معظم الأرض، وما بها من النبات، ويجمدُ من شدة البرد. وتختلف الحرارة في فصل الربيع بين الليل والنهار، ويصلُ الفرقُ أحياناً ثلاثين درجةً، فيكون النهارُ شديد الحرارة، والليلُ شديد البرودة^(١).

وكانوا إذا قالوا: ليلةٌ جُمَادِيَّةٌ، أرادوا أنها شديدة البرد، في جُمَادَى كانت أو في غيرها. وهي إشارةٌ إلى ما كان من شدة البرد في شهري جُمَادَى، ومنه قولُ الشاعر: ليلةٌ إذا هاجتْ جُمَادِيَّةٌ... أي ليلةٌ باردةٌ من ليالي الشتاء^(٢). وكانوا كذلك يَصِفُونَ جُمَادَى بالقَحْطِ، واحتباسِ المطر. ومن ذلك قولُ الشاعر: هُمُ الْإِيْسَارُ إِنْ قَحَطَتْ جُمَادَى^(٣)... أراد أنهم يَظْلُونَ أغنياءَ كُرماءَ، وإن احتبستْ جُمَادَى مطرها. ومنه أيضاً قولُ أُخَيْحَةَ بن الجُلاح^(٤):

إذا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطَرَهَا زانَ جَنَابِي عَطْنٌ مُغْضِفٌ^(٥)

أراد أن محلَّته، وإن بَخِلَتْ جُمَادَى بمطرها، تَزِينُهَا أشجارُ نخيله، الراسخةُ في الماء، الكثيرةُ الحَمْلِ، المُتَدَلِّيةُ الثمار^(٦)... ومن المفيد هنا،

(١) د. جبرائيل جبور - البدو والبادية: ٤٦، ٤٨.

(٢) تاج العروس: ٥٢٠/٧ (جمد).

(٣) لسان العرب: ٤٠٦/٢ (بحج).

(٤) أُخَيْحَةُ بن الجُلاح: أبو عمرو، شاعر جاهلي، من دهاة العرب، وشجعانهم، كان سيد الأوس، وسيد يثرب في الجاهلية، وكانت سلمى بنت عمرو الخَزْرَجِيَّةُ زوجةً قبل أن يخلف عليها هاشم بن عبد مناف.

(٥) لسان العرب: ٢٦٨/٩ (غضف).

(٦) تاج العروس: ٢١٦/٢٤ (غضف)، والأزمة والامكنة: ٢٧٧/١.

الإشارة إلى أن الشاعر جمعَ في كلامه، بين ذِكْرِ جُمَادَى، ولعلَّها الآخِرَةُ، لِشُحْها بالمطر وقُربها من آخر الشتاء، وذِكْرِ النخيل التي أوقرت بكثرة الحمل، فتدلُّ ثَمَرها مُستَرخياً... وهذا يجعلُ موقعَ جُمَادَى الآخرة في شهر آذار (مارس)، وليس بين كانون الأول وشباط (ديسمبر وفبراير)، كما قدَّر «أنيس فريحة»^(١)، ويجعل تقديره وقوعَ شهر رجب في مُقابل شهر نيسان صحيحاً، وهو ما سنعود إلى الحديث عنه في موضِعه من هذا البحث إن شاء الله.

صَفْوَةُ الكلام في الجُمَادَيَيْنِ أن الزمنَ فيهما كان، كما يبدو من البحث، كريماً بالبرد القاسي، وجَمَدِ التَّدَى في الليل خاصَّةً، ولكنه شَحِيحٌ غالباً بالغَيْثِ، إذهو آخر الشتاء، إلا ما كانوا يَرْجُونَهُ من نَوءٍ منزل «الجبهة» في نحو الثاني عشر من شباط (فبراير)، فهو أشرفُ الأنواءِ عند العرب، وإن صدَّقَ كانوا يقولون: ما امتلأ وادٍ من نَوءٍ الجبهة ماءً، إلا امتلأ عُشْباً... وإذا أَخْلَفَ، ولم يكن فيه مطرٌ، كان ربيعُ العرب ناقصاً^(٢).

وعلى ذلك أرى أن وجه التسمية في جُمَادَى قائمٌ على اثنين من معاني الجَمَدِ:

١ - الجَمَدُ بمعنى جمود الماء من شِدَّةِ البردِ، ولا سيما في الليل، وليس بمعنى هطول الثلج، وإنِ اتَّفَقَ وقوعُ ذلك يوماً في بعض السنين، أو في هامات الجبال، لا في الصحراء.

٢ - الجَمَدُ بمعنى البُخل، أي البخل بالغيث والقَطَر.

(١) أسماء الأشهر: ٦٥.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٤٧، وعجائب المخلوقات: ٧٩ - ٨٠.

ولا أرى هذا المعنى بعيداً من معنى «آذار - مارس» عند البابليين والسُريانيين والعبرانيين، وهي كلمة من أصلٍ بابليٍّ معناها «الهدرُ والصَّخبُ»، سُمِّيَ بها هذا الشهرُ لكثرة بُروقِهِ ورُعودِهِ، ولها صِيغَتَا تعريبٍ أُخريان: آذار، وأدار، وكان آذار الثاني الشهر الثالث عشر من السنة الكبيسة عند اليهود، لأن ستهُم قمرية^(١). . . . وذلك يؤكد أن الظرف الطبيعي لشهر جُمادى الآخرة عند العرب كان يتفق وموقع شهر آذار (مارس) من السنة، ويكون شهرُ شباط 'فبراير' الظرفَ الطبيعيَّ لشهر جُمادى الأولى.

* * *

④ - شَهْرُ رَجَبٍ:

وهو الشهر السابع من شهور السنة العربية، هكذا كان في الجاهلية مُتأخِّرة، وعلى ذلك أَقَرَّهُ الإسلام. ولكنه كان في الجاهلية المتقدِّمة الشهر لأوَّلَ في السنة، حينما كانت الأُمَمُ تفتتحُ سِنِّيها مع قُدوم فصل الربيع، في نحو الواحد والعشرين من شهر آذار (مارس)، بالتقويم العربي السرياني، وقد نُقِلَ بعدئذٍ إلى الأول من شهر نيسان (أبريل). وكان شهراً مُحَرَّماً عندهم جميعاً، جَزْياً على عادة الشعوب وقتئذٍ في تحريم الشهر الأول من السنة، وتكريسه لعبادة الآلهة، وشكرها على ما أنعمت به عليهم من تجدد الحياة بعودة الربيع.

وكانت العربُ تُسمِّيهِ رَجَباً القَرَدَ، لأن الشهور المحرَّمة الثلاثة الأخرى، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، وصَفَرُ الأوَّلِ المحرَّم، جاءت سَرْداً متعاقبةً وانفرد رَجَبٌ لوحده في وسط السنة، كما نقل جواد علي^(٢). . . . بينما هو في

(١) عبد الله العلايلي - المعجم: ١٢٤ (آذار)، القسم الثاني من المجلد الأول.

(٢) المفصل: ٤٧٧/٨.

الحقيقة منفرد بنفسه سواء أكان في وسط السنة أم في أولها. ويقال إنهم كانوا يُسمّونه أيضاً: رَجَباً المحرّم^(١)، ويبدو لي أن ذلك كان في الجاهلية الأولى، فلما انتقل رأس السنة إلى صَفَرِ الأول غلب على هذا نَعَتْ المحرّم دون سائر الأشهر المحرّمة، تأكيداً لحُرْمَتِهِ.

ويعتقد علماء المسلمين، كابن كثير، أن شهر رَجَبٍ حُرّم في وسط السنة، لأجل زيارة البيت، والاغتمار به، لمن يقدّم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره، ثم يعود فيه إلى وطنه آمناً^(٢). . . وهذا قولٌ فيه نظر، فهو غير دقيق، لأن زائر مكة من أقصى بلاد العرب، كان يحتاج يومئذٍ إلى أكثر من شهر في قدومه إليها، ومُقامِهِ بها، وعودته منها، ولأن أمانته في العمرة لا يقوم على حُرْمَةِ الشهر وحسب، بل على قَصْدِهِ بيتَ الله، وعلى ما يسوقه إليه من الهدي والثدور، وما يتحرّز به من الأحلاف والجوار وما إلى ذلك.

وقيل كذلك إنه سُمّي رَجَباً من الترجيب، أي التعظيم، لخوفهم إيّاه^(٣)، فكانوا يُعظّمون فيه ألّهتهم، ويذبحون لها القرابين، ويُعظّمون الشهر نفسه، ويقولون: شهرُ الله الأصمّ، لأنهم لا يسمعون فيه قفّعة سلاح، ولا صوت مُستغيث^(٤). . . فيقعدون فيه عن القتال، ولا يغزو بعضهم بعضاً. . . كما كانوا ينعثونه بمنصلي الألّ، والألّ: الأسيّة. ويقال إن قبائل مُضَر هي التي نعتته بهذا النعت، لأنهم «كانوا إذا دخل رجب، أنصلوا الأسيّة من الرماح حتى يخرج الشهر»^(٥)، أي حتى ينقضي. . .

(١) شرح القصائد السبع: ٥٤٥، والمفصل: ٤٨٤/٨، وسورة البقرة: ٢١٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/٣٩٦.

(٣) مروج الذهب: ١٨٩/٢.

(٤) الأزمنة والامكنة: ٢٧٨/١، ٢٨١ - ٢٨٢، ولسان العرب: ٣٤٤/١٢ (صمم).

(٥) أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني: ١٢١/١١ - ١٢٢.

وذكر ابن منظور أن الرَّجَب هو التعظيم، والمَهَابَةُ، والاستِخْيَاءُ، وأن شهر رَجَبٍ سُمِّيَ بذلك في الجاهلية، لتعظيمهم إِيَّاهُ عن القتال فيه، وأنه، كما جاء في الحديث، رَجَبٌ مُضَرٌ الذي بين جُمَادَى وشعبان، وإنما قيل رَجَبٌ مُضَرٌ، إضافةً إليهم، لأنهم كانوا أشدَّ تعظيماً له من غيرهم، فكانهم اختصُّوا به^(١). وكانت قبائل مُضَرٍ أهل الكثرة والغلبة في الحجاز ونجد وتهامة.

ويبدو لي أن القول بأنه الشهر الذي بين شَهْرِي جُمَادَى الآخِرَةِ وشعبان، إنما هو تثبيتٌ له في موقعه بينهما، من غير تقديم أو تأخير، ذلك أن العرب لما كانت تفتتح سنتها قديماً بشهر رجب، كانت تؤخر ابتداءها به أحياناً، مُدَّةَ شهرٍ، يُضاف إلى السنة المُتَقَضِيَةِ، وراء جُمَادَى الآخِرَةِ، فتصير ثلاثةَ عشرَ شهراً، أي سنةً كبيسةً، فيأتي الشهرُ المُضَافُ ليفصل بين جُمَادَى ورجب. وكانوا يُحرِّمون الشهر المُضَافَ، أو المكبوسَ، ويرفعون الحُرْمَةَ عن رَجَبٍ، فجاءتِ السُّنَّةُ بتحريم ذلك، وتثبيت رَجَبٍ في موقعه وحُرْمته. ومن شأن هذه الملاحظة أن تؤكد أنَّ شهور العرب كان يجري تثبيتها بالكبس والنسيء لثلاث دورٍ في الفصول الأربعة.

وفي اعتقادي أن تحريم رجب كان كتحریم صَفَرِ الأوَّل، فكلاهما شهرُ ربيع، ورَجَبٌ استمرارٌ لموسم الترتُّب الثاني عند العرب، وهو موسمُ نعمةٍ وخيرٍ وبركةٍ، لا بُدَّ لهم فيه من شكرِ الآلهة، والتعبد لها، على ما أنعمت به عليهم من الغيثِ والنباتِ والثمارِ والأنعام. ولذلك كانوا في الجاهلية يَذْبَحُونَ العَتَائِرَ في شهر رَجَبٍ، يتقرَّبُونَ بها إلى الآلهة. والعَتِيرَةُ شاةٌ، هي

(١) لسان العرب: ٤١١/١ (رجب).

أَوَّلُ مَا يُتَّبَعُ فِي الرَّبِيعِ، وَتُسَمَّى الرَّجَبِيَّةُ^(١). وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ أَنَّ شَهْرَ رَجَبٍ كَانَ مُنْصَرَفَ الشِّتَاءِ وَأَوَّلَ فَصْلِ الرَّبِيعِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَمَا يَزَالُ بَعْدُ فِي الْبَادِيَةِ بَرْدٌ وَجَمْدٌ... آيَةُ ذَلِكَ قَوْلُ بَشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ، وَهُوَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، كَانَتْ دِيَارُ قَوْمِهِ بِيَادِيَةِ نَجْدٍ^(٢)، يَصِفُ ثَوْرًا وَحْشِيًّا، صَارَ إِلَى الْفَقْرِ:

فَبَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةُ رَجَبِيَّةٌ تُكْفِّئُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ، وَتُمْطِرُ
فَاضِحِي وَصِيبَانُ الصَّقِيعِ كَأَنَّهَا جُمَانٌ بِضَاحِي مَتْنِهِ يَتَحَدَّرُ^(٣)

يقول: إِنَّ ذَلِكَ الثَّوْرَ بَاتَ لَيْلَةً مِنْ لَيَالِي رَجَبٍ، تَضْرِبُهُ فِيهَا فَتْمِيلُهُ، رِيحٌ بَارِدَةٌ، شَدِيدَةٌ تَخْرِقُ الْأَجْسَادَ، وَتُمْطِرُ، فَاصْبَحَ وَحَبَاتُ التَّدْيِ الْمُنْجَمِدِ، تَتَحَدَّرُ عَلَى جِلْدِ ظَهْرِهِ كَأَنَّهَا حَبَاتُ اللَّوْلُو. وَالصِّبْنَانُ مَا يَتَحَبَّبُ مِنَ الْجَلِيدِ كَاللَّوْلُو الصِّغَارِ^(٤). وَهَذَا وَصْفٌ صَرِيحٌ لَزَمَنَ يَأْتِي عِنْدَ انْصِرَافِ الشِّتَاءِ وَإِقْبَالِ الرَّبِيعِ، وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَضُوحًا.

وَأَشَارَ جَوَادُ عَلِيٍّ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْمَوَارِدِ الْيُونَانِيَةِ الْقَدِيمَةِ، ذَكَرَتْ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُحَرِّمُونَ شَهْرًا وَاحِدًا مُنْفَرَدًا، مِنْ شُهُورِ الرَّبِيعِ، وَشَهْرَيْنِ آخَرَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ يَقَعَانِ فِي الْقَيْظِ، أَمَّا الشَّهْرُ الثَّلَاثُ الَّذِي أَلْحَقَ بِهِذَيْنِ الشَّهْرَيْنِ، فَصَارَتْ بِهِ ثَلَاثَةٌ سَرْدًا، فَيَبْدُو أَنَّهُ حُرْمٌ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ^(٥). . . . وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الشَّهْرَ الْمُنْفَرَدَ هُوَ شَهْرُ رَجَبٍ، وَالشَّهْرَيْنِ الْآخَرَيْنِ هُمَا ذُو الْقَعْدَةِ

(١) لسان العرب: ٥٣٧/٤ (عتر).

(٢) الأعلام: ٥٤/٢.

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي - تحقيق د. عزة حسن: ٨٢ - ٨٣ (البيتان: ٨ و ١١).

(٤) لسان العرب: ١٤٠/١ - ١٤١ (كفا)، و ٥١٤/١ (صَاب)، وفقه اللغة: ٢٧٨.

(٥) المفصل: ٤٨٤/٨ - ٤٨٥.

وذو الحجة، والشهر الثالث هو المحرم أي صفر الأول، وقد حُرِّم بعدما نُقِلَ رأسُ السنة من رَجَبٍ إليه. ومن شأن هذا التأكيد على أن شهر رَجَبٍ شهرُ ربيع، وهو ما ذكره مؤرِّخُ يونانيٍّ آخرُ بقوله: إن العرب يحجُّون إلى معبدِهم مرتين في السنة، مرةً في وسط الربيع، عند اقتران الشمس بِبُرْجِ الثور، أي في نيسان (أبريل)، وذلك لمدة شهر واحد، ومرةً أخرى في الصيف لمدة شهرين^(١). وهذا يعني أن شهر رجب كان يقع في فصل الربيع الذي يأتي بعد الشتاء، أي بين آذار وتيسان (مارس وأبريل)، ذلك أن أول تيسان كان يقع قديماً في الواحد والعشرين من آذار، قبل تأخيرِه عن ذلك...

يؤيِّدُ هذا المذهب أن مادة «رَجَب»، لم تكن في الأصل تعني التعظيم، أو التقديس أو المَهَابَة، وإنما صارت تعنيها لأن «الشهر كان مُقَدَّساً في الجاهلية، يَذْبَحُونَ فيه العَتَايِرَ، وَيُقيمُونَ بعضَ مناسك الحجِّ الجاهلي القديم...»^(٢)، والأصل في الترجيب: أن تُدْعَمَ النخلةُ الكريمةُ بالترجيبِ، إذا خيفَ عليها أن تقع وتتكسَّرَ أغصانُها حين يكثر حملُها^(٣)... ومنه قول بعضهم مُفْتَخِراً بقبيلته: أنا عُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ^(٤)... أي أن لي عشيرةً نَعُضِدُنِي، وَتَمْنَعُنِي، وَتُرَفِدُنِي. والعُذَيْقُ: تصغيرُ العَذْقِ، وهو النخلةُ بِحَمْلِها عند أهل الحجاز. والترجيبُ هنا معناه: إزفادُ النخلةِ لِئَلَّا تَسْقُطَ، أو يقعَ حملُها، ويقالُ: إنه ضَمُّ أعذاقِ النخلةِ إلى سَعَفَاتِها، وشُدُّها بالخوصِ^(٥)، لِئَلَّا تَنْفُضَها الرِّيحُ، فَتُسْقِطَ ثَمَرُها. وهو أيضاً: تَسْوِيَةُ سُورُغِ

(١) المرجع نفسه: ٤٨٦/٨.

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ٦٦.

(٣) د. صبحي الصالح - دراسات في فقه اللغة: ١٩٧.

(٤) هو الحُبَابُ بن المنذر الأنصاري، قاله عند بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، يوم السقيفة.

(٥) الأعذاق: مُفْرَدُها عَذْقٌ، وهو من النخل كالمنقود من العنب. والسَعَفُ: مُفْرَدُها سَعْفَةٌ وهي أغصان النخلة. والخوص: ورق النخل. ويقال أيضاً: العَذْقُ كُلُّ غصنٍ له شَعَبٌ.

الكَرْم، أي قُضبانُه الرطبة^(١)... ذلكم هو الترجيبُ في أصل معناه: أعمالُ دَغْمٍ وشَدٍّ وإصلاحٍ على النخلِ والزَّرع، تُجرَى في مطلع الربيع. وقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين، أن العادة استقرَّت منذ أقدم العصور، على رَبْطِ عَراجينِ النخيل في شهر نيسان (أبريل) من كل عام، منعاً للريح أن تُسْقِط ثمارها^(٢)... ومن شأن ذلك كله إثباتُ أن شهرَ رَجَبٍ هو ابتداءُ الربيع عند العرب، وأن وَجَهَ التسمية فيه قائمٌ على العناية بالثمار، والأغصان التي تحملها وقتئذٍ، للحفاظِ عليها، وأنه يُقَابِلُ شهرَ تَيْسَانَ عند أهل الشام والعراق، وإبريل عند أهل مصر وشمال أفريقيا، في وقوع أوَّلِ زَمَنِه في بداية فصل الربيع.



⑤ - شهر شَعْبَانَ:

وهو الشهرُ الثامنُ من أوَّلِ السنة عند العرب. قيل إنه سُمِّيَ بذلك لِتَشَعُّبِهِمْ فيه، أي تفرُّقهم في طلب المياه، وقيل في الغارات^(٣)... وقيل لِتَشَعُّبِ العُودِ، أي لتفرُّع الأغصان عن الأشجار، فالشهر من شهور

(١) لسان العرب: ٤١١/١ - ٤١٣، وتاج العروس: ٤٨٥/٢ (رجب).

(٢) محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن العشرين - دار المعرفة - بيروت (١٩٧١ م): ١١١/١٠ (نخل). «وقد جرت العادة منذ عهد بعيد جداً، بالاستعانة على إخصاب النخل، بأن يؤخذ عُرْجُونٌ صغير من زهر الذَّكَر، المعروف بالطلُّع، قبل تمام نُضْجِه مباشرة، ويوضع بين قَمَرِ الأنثى لمنع الأخطار والخسائر التي تنشأ من طريقة الإخصاب بالريح، ويجب ربط عراجين الذكر لمنع الريح من إسقاط محصولها، وتجرى هذه العملية في شهر تَيْسَانَ - أبريل».

(٣) لسان العرب: ٥٠٢/١، وتاج العروس: ١٤٢/٣ (شعب)، وتفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣، وعجائب المخلوقات: ١١١، وصبح الأعشى: ٤٠٢/٢، ومروج الذهب: ١٨٩/٢.

الربيع^(١). وزاد المرزوقي على ذلك قوله: لاشْتِعَابِ الظُّعْنِ إِيَّاهُمْ عن النمر بع
إلى المحاضر^(٢)، أي لأن الازتِحَالَ إلى ديارهم في المحاضر، يُفَرِّقُهُمْ بعدما
كانوا مجتمعين في موسم التَّربُّع بالبادية. ويكون وجه التَّسْمِيَةِ إذ ذاك مأخوذاً
من التَّشْعُبِ، بمعنى التَّفْرِقِ والتَّصَدُّعِ، ومن ذلك سُمِّيَ العَدْدُ من القبائل
شُعْباً^(٣)، وفيه قال الشاعر:

لا أَحْسِبُ الدَّهْرَ يُبْلِي جِدَّةً أَبَداً ولا تَقَسِّمُ شُعْباً واحداً شُعْبُ

أراد أن يصفَ أحياءَ مجتمعين في موسم الربيع، فلما قصدوا العودة
إلى المحاضر، تَقَسَّمَتْهُمْ مِيَاهُهُمْ، فقال: ما كنتُ أظنُّ أن شُعْباً مُتَّفَقَةً
مختلفةً، تُفَرِّقُ شُعْباً واحداً مُجْتَمِعاً، وذلك أنهم كانوا في مَنَاجِمِهِمْ وَمَرَابِعِهِمْ
مُجْتَمِعِينَ على ثِيَّةٍ واحدةٍ، فلَمَّا يَسَرَ العُشْبُ، وَنَشَتِ الغُدْرانُ، تَوَزَّعَتْهُمْ
أَعْدَادُ المِيَاهِ في ديارهم بالمحاضر، فصاروا شُعْباً، على يَتَاتٍ كثيرة^(٤)، أي
فِرْقاً وقبائلَ منتشرةً في أوطانٍ مُتَبَاعِدَةٍ...

وكان التَّشْعُبُ يبدأ مع دُخُولِ الزَّمنِ الذي حُدَّ فيه هذا الشهرُ، فاشتقَّ له
إِسْمُ شُعْبَانٍ، في دَلَالَةٍ دَقِيقَةٍ على التَّفْرِقِ بعد الاجتماع، فَالشَّعْبُ: التَّفْرِيقُ
والتَّصْدِيعُ، وَالتَّشْعُبُ: التَّفْرِيقُ والتَّصَدُّعُ، وَالشَّعْبُ: الجَمْعُ والإِصْلَاحُ...
ومن الواضح أن الأمر لا علاقة له بالغارات، وما ذاك أكثر من اختراع زَوْرَةٍ
أهلُ الأخبار.

ومن عادة العرب، أنهم لا يزالون في موسم التَّربُّع، يَتَجَمَّعُونَ البوادي،

(١) صبح الأعشى: ٤٠٢/٢.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١٦٨/١، ٢٧٨.

(٣) لسان العرب: ٤٩٧/١ - ٤٩٨ (شعب)، و ١٣٠/٣ (جمد).

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٥٧، و لسان العرب: ٥٠٠/١، وتاج العروس: ١٤٠/٣ (شعب).

حتى يَطْلُعَ منزلُ «الشَّرْطَيْنِ»، وطلوعُهُ في السادس عشر من نيسان (أبريل)،
 فذلك أوَّلُ تَفَرُّقِهِم عن البوادي، وَرُجُوعِهِم إلى مَوَاطِنِهِم، وَمِيَاهِهِم في
 مَحَاضِرِهِم، ثم يَتَّبِعُ بَعْضُهُم بَعْضاً في الرجوع، حتى يَطْلُعَ منزلُ «الْهَقْعَةُ» في
 السابع من حزيران (يونيه)، فلا يبقى أحدٌ منهم في البادية، لأنَّ الغُذْرَانَ
 بالبوادي قَلَّتْ وَخَاسَتْ^(١). وفي ذلك يقول ساجعُ العرب: إذا طَلَعَ
 الشَّرْطَانِ، استوى الزمان، وَخُضِرَتِ الأوطانُ، وَتَهَادَتِ الجيرانُ^(٢)... وهو
 كنايةٌ عن اعتدال الزمان، وانتهاء موسم التبدِّي، وَشُرُوعِ البَادِيَةِ في هذا
 الوقت بالعودة إلى مَحَاضِرِهِم وَمِيَاهِهِم، التي يُقِيمُونَ عليها عادةً، ثم يأخذُ
 الجيرانُ منهم بالتَّهَادِي، لكثرة النعم والخير في موسم الربيع. وجاء في قول
 آخر: وَخُضِرَتِ الأَعْطَانُ^(٣)... وهي مَبَارِكُ الإِبِلِ حول الحِيَاضِ التي تُسْقَى
 منها في غير أوقات التبدِّي والنجعة، وإنما تُعْطِنُ العربُ الإِبِلَ على الماء،
 حين تَطْلُعُ «الثريَّا»، ويرجعُ الناسُ من المناجع إلى المحاضِرِ^(٤)، وطلوعُ
 «الثريَّا» يكون في نحو الثاني عشر من أيَّار (مايو)، وهو مُؤَذَّنٌ بِأَقْبَالِ الحرِّ
 وَشِدَّتِهِ^(٥). وإذا أخذنا بما ذكره ابنُ منظور عن طلوع الثريَّا بالحجاز، في
 العَشرِ الأَوْسَطِ من أيَّار^(٦)، فمن شأن ذلك التأكيدُ على أن شهر شَعْبَانَ حُدَّ
 في الزمن الواقع بين طُلُوعِ الشَّرْطَيْنِ وَطُلُوعِ الثريَّا، وأنه كان يُقَابِلُ شهرَ أيَّار،
 وقد كان ثابتاً في موقعه، لارتباطه بالزمن الذي ينتهي فيه موسمُ الربيع،

(١) الأزمئة والأنواء: ١٥٨.

(٢) المفصل: ٤٢٩/٨.

(٣) الأزمئة والأنواء: ١٥٧.

(٤) لسان العرب: ٢٨٦/١٣ - ٢٨٧ (عطن).

(٥) عجائب المخلوقات: ٧٧ - ٧٨.

(٦) لسان العرب: ٥٧٠/١٢ (نجم).

ويأخذُ الناس فيه بالعودة عن النُجعة في البادية إلى الإقامة في المحاضر، ولم يكن قطعاً شهراً للغزو والغارات.

* * *

⑥ - شَهْرُ رَمَضَانَ:

وهو الشهرُ التاسعُ من أوّل السنة عند العرب، وهناك إجماع على أن وجه التسمية فيه قائمٌ على الرَّمَضِ والرَّمْضَاءِ، أي شِدَّة الحرِّ، عندما سُمِّيَ بذلك^(١). وأضاف المسعودي وجهاً آخرَ للتسمية، فزعم أنه إنمَّ من أسماء الله، ولا يجوز أن يُقال فيه إلا شهر رمضان^(٢). ولكن ابن كثير خطأً من قال إنه اسمٌ من أسماء الله، وطلب أن لا يُلْتَقَتَ إليه، ولا يُعْرَجَ عليه^(٣)، وكذلك فعل الزبيدي^(٤). وقولهم: عندما سُمِّيَ بذلك، هَذَرٌ قَصِدَ به تبريرُ فقْدانه معناه، بعدما صار دائراً في جميع الفصول! والأصلُ فيه أنه كان ثابتاً في موقعه من الأزمنة، لأنه كان موسماً للتَّحُثُّ والعبادة في عصر الجاهلية... وقد ذكر البلاذري^(٥)، أن قُرَيْشاً كانت «إذا دخل رمضان، خرج من يُريدُ التَّحُثُّ منها إلى جِزَاءٍ، فيقيمُ فيه شهراً، ويُطعمُ من يأتيه من المساكين، حتى إذا رَأَوْا هلالَ شَوَّال، لم يَدْخُلِ الرجلُ على أهله، حتى

(١) صبح الأعشى: ٤٠٢/٢، وتفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣، ومروج الذهب: ١٨٩/٢، وعجائب المخلوقات: ١١١، والأزمنة والأمكنة: ١٦٨/١، ٢٧٨.

(٢) مروج الذهب: ١٨٩/٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣.

(٤) تاج العروس: ٣٦٣/١٨ (رمض).

(٥) البلاذري: أحمد بن يحيى. مؤرَّخ، جغرافي، نسابة. كان يُجيد الفارسية، ونقل عنها كثيراً. بقي من مصنفاته التاريخية: كتابُ فتوح البلدان، وكتاب أنساب الأشراف. توفي سنة ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م.

يطوف بالبيت أسبوعاً^(١)، أي سبع مرات، والتحُّثُ: التبعُّدُ واعتزالُ الأصنام وعبادتها، وهو موسمٌ لا بُدَّ أن يكون ثابتاً وقتئذٍ. يؤكد ذلك أن من معاني الرَّمَضِ، فضلاً عن الحرِّ، الرُّجُوعُ من البادية إلى الحاضرة^(٢)، وشاهدُ قول الشاعر:

إذا الجوزاءُ أزدَقَتِ الشريَّا ظَنَّتْ بِآلِ فاطمةَ الظُّنونا

ومعناه أن «الجوزاء» تزدفُ «الشريَّا» في اشتداد الحرِّ، أي تأتي بعدها، وعند ذلك تجفُّ المياه، فتتفرَّقُ الناسُ في العودة إلى محاضِرهم، فتغيبُ عنه محبوبته، فلا يدري أين مضى بها أهلها، وهو كان التقاها في موسم التربع، أيامَ تخرجُ القبائلُ من منازلها، وتجتمع في مَنَاجِعِ البادية^(٣).

والواقعُ أن «الجوزاء» تطلعُ في التاسع من حزيران (يونيه)، بُعيدَ طلوع «الهقعة»، وحينئذٍ تبدأ حَمَارَةُ القَيْظِ، والتهابُ الحرِّ. وفي ذلك يقول ساجعُ العرب: «إذا طَلَمَتِ الهَقْعَةُ، تَقَوَّضَ الناسُ لِلْقُلْعَةِ، وَرَجَعُوا عَنِ النَّجْعَةِ...»، أي أنهم يَقَوِّضُونَ خِيَامَهُمْ في البادية، ليرجعوا عن النَّجْعَةِ إلى أوطانهم، فذلك الميقاتُ آخِرُ عهدهم بالبادية في تلك السنة^(٤). وهذا مِصْدَاقُ قولهم: إن الرَّمَضَ هو الرجوعُ عن المبادي إلى المحاضِر، وهو في شهر رمضان قطعاً، ومعناه أن رمضان زمنُ قَيْظٍ، وأنه كان يُقَابِلُ شهرَ حَزيرانَ، وأن اسمه مأخوذٌ من المَعْنَيْنِ: شِدَّةِ الحرِّ، وآخِرِ العهدِ بموسمِ التبدِّي لذلك العام.

* * *

(١) أنساب الأشراف: ١٠٥/١.

(٢) لسان العرب: ١٦٠/٧، وناج العروس: ٣٦١/١٨، ٣٦٧ (رمض).

(٣) لسان العرب: ١١٥/٩ (ردف).

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٦٥ - ١٦٦.

⑤ - شهر شَوَّال :

وهو الشهر العاشر من شهور العرب، وأوَّل أشهر الحجِّ. وقوله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ... ﴾^(١)، معناه: شَوَّال، وذو القعدة، وعَشْر من ذي الحِجَّة، وذلك بإطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، وهذا ما أَطْبَقَ عليه معظمُ الأئمة، بينما ذهب بعضهم إلى أن معناه: شَوَّال، وذو القعدة، وذو الحِجَّة بكماله^(٢). وهناك ثلاثة أقوالٍ في تسمية شَوَّال.

الأول: يجعلُها من الشَّوْلِ، أو الشَّوْلان، وهو الرَّفْعُ أو الارتفاع... . يَغْنِي أن الإِبِلَ كانت تُشَوَّلُ فيه أَذْنَابُهَا، أي ترفعُها علامةً على رغبتها في اللقاح. ولذلك كانت العربُ تكرهُ عقدَ الزواج في هذا الشهر، وتَنْشَأُ به، حتى أَبْطَلَ النبيُّ عليه السلامُ تَشَاؤُمَهُمْ. وهذا دليلٌ على أن الشهر كان ما يزالُ ثابتاً في زمنه، لم ينتقل في الفصول، حين صَنَعَ النبيُّ ذلك.

والثاني: يجعلُها من التَّشْوِيلِ، وهو النقصُ والجفاف. وذلك أن أَلْبَانَ الإِبِلِ كانت تُشَوَّلُ فيه، أي تَقِلُّ، وتَجِفُّ^(٣)، وكذلك حالُ الإِبِلِ عند اشتدادِ الحرِّ، وانقطاع الرُّطْبِ^(٤)، أي انقطاع العُشْبِ والكلأ لِشِدَّةِ الحرِّ. وهو دليلٌ آخرُ على ثبات الشهر في موقعه أيامَ الجاهلية.

والثالثُ: يجعلُ التسميةَ من الشَّوْلِ أيضاً، بمعنى الرفع، ولكن ذهاباً

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤١٨/١، ولسان العرب: ٢٢٧/٢ (حجج).

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢٧٨/١، ومروج الذهب: ١٨٩/٢، وعجائب المخلوقات: ١١٢، وتفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣.

(٤) لسان العرب: ٣٧٧/١١ (شول).

منه إلى أن الإبل كانت تَشُولُ بأذنانها، إذا حُمِلَتْ في هذا الشهر للرحيل إلى الحج^(١)... وهو قولٌ غيرٌ دقيقٍ، لأنه، إذا صحَّ، أمكن وقوعه متى حُمِلَتْ الإبلُ في كل الشهور...

وإذا صرفنا النظرَ عن اهتمام أهل الأخبار والمؤرخين بالإبل، وكأنها من سَمَى الشهرَ باسمه، وتغافلهم عن أصحابها العربِ وفكرهم، أمكن أن نستخلصَ من تلك الأقوال، ومن الرجوع إلى معاني مادة «شَوْل» في العربية، أن الزمن الذي كان يقع فيه شهرُ شَوَالٍ، زمنٌ تشتدُّ فيه الحرارةُ عادةً، وينقطع العشبُ والكلأُ، وتكونُ حالُ الإبل على تلك الصورة من حُبِّ اللقاح، وجفافِ الألبان في الضروع... ونحن نعلمُ أن هذا الزمنَ هو ابتداءُ ارتحال العرب إلى الحجاز، لِشُهُودِ مواسم الحجِّ الأكبر في مكة، وأسواقِ عكاظ ومجَنَّةٍ وذِي المجَاز، فهو زمنٌ له آيتانِ إذن، إحداهما: الارتفاعُ، أي ارتفاعُ الحرارة واشتدادُها، وهذا هو المعنى الرئيسُ الأوَّلُ لمادة «شول»، وأمَّا ارتفاعُ الأشياءِ الأخرى، كأذنابِ الإبل وغيرها، فهو معنىٌ قَرْعِيٌّ تَبَعِيٌّ. والآيةُ الأخرى: الازتِحَالُ، وهو المعنى الرئيسُ الآخرُ للكلمة. وكانت العربُ تقول في القوم إذا خَفُّوا وَمَضَوْا: شَالَتْ نَعَامَتُهُمْ، أي ارتحلت جماعتُهُمْ، وَخَفُّوا مُسْرِعِينَ^(٢)، والشَوْلُ هنا معناه الارتحالُ إلى مواسم الحجِّ، وشَوَالُ أوَّلُ أشهرِ الحجِّ. وإذا فَتَّشْنَا في أقوال العرب عن دليلٍ آخر، وجدنا ساجِعَهُمْ يقول: «إذا طَلَعَ الذِّراعُ، حَسَرَتِ الشَّمْسُ القِنَاعَ، وَأشَعَلَتْ في الأفقِ الشُّعَاعَ، وَتَرَفَّرَ السَّرَابُ بِكُلِّ قَاعٍ»، والمعنى أن شِدَّةَ الحرِّ لم تَدَعُ غايةً في التَّوَقُّدِ والذِّكَاةِ^(٣)... ويكون طُلُوعُ منزل «الذِّراع» نحو الثالث من

(١) صحيح الأعشى: ٤٠٢/٢.

(٢) لسان العرب: ٣٧٦/١١ (شول).

(٣) الأزمنة والأنواء: ١٦٨.

تَمُوز (يوليو)^(١)، وَيَتَّبَعُهُ طُلُوعُ «الشِّغْرِى العَبُور» في التاسعَ عَشَرَ مِنْهُ، وعند ذلك يبلُغُ الحرُّ مُنتَهَاهُ، وتَأْخُذُ شِدَّتُهُ بالتراجُعِ^(٢)... ولعلَّ أَطْرَفَ مَا يُصَوِّرُ شِدَّةَ الحرِّ في شَوَّالٍ، قولُ الشاعر:

أَبَا ذُلَيْجَةَ، مَنْ لَحِيٍّ مُفَرِّدٍ صَقِيعٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ فِي شَوَّالٍ؟

أَيُّ مَنْ لِلْإِنْسَانِ يَكَادُ يَمُوتُ بَرْدًا، خَوْفًا مِنَ الْأَعْدَاءِ، رَغْمَ كَوْنِهِ فِي شَوَّالٍ شَهْرِ الْحَرِّ! وَالصَّقِيعُ مَنْ أَصَابَهُ الصَّقِيعُ، أَيُّ الْجَلِيدِ^(٣).

وعلى ذلك يكون وجه التسمية في شَوَّالٍ قائمًا على مَعْنِيَيْنِ مِنْ معاني الكلمة، هما: الشَّوْلُ بمعنى الارتفاع أَيُّ اشتداد الحرِّ، والشَّوْلُ بمعنى الارتحال في سرعة. ويكون موقعُ هذا الشهر في تقديرنا موقعَ شهر تموز (يوليو) من السنة الشمسية.



⑧ - شهرُ ذِي الْقَعْدَةِ:

وهو الشهرُ الحادي عشر من أول السنة، والثاني من أشهرِ الحجِّ. وأكثرُ المفسِّرين والأخباريين على أنه سُمِّيَ بذلك لِقُعُودِ العربِ فيه عن لِقَتَالِ، لأنه شهرٌ محرَّمٌ^(٤)... وفي قولٍ آخر: لِقُعُودِهِمْ فيه عن الأسفارِ والغزوِ وطلبِ الكلالِ والميرةِ^(٥).

(١) عجائب المخلوقات: ٧٩.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) لسان العرب: ٢٠١/٨ (صق).

(٤) صبح الأعشى: ٤٠٢/٢، وعجائب المخلوقات: ١١٢، وتفسير ابن كثير: ٣٩٥/٣،

ومروج الذهب: ١٨٩/٢.

(٥) لسان العرب: ٣٥٧/٣، وتاج العروس: ٤٦/٩ (فعد)، والأزمنة والأمكنة: ٢٧٩/١.

ولا يبدو لي هذا التعليل في القولين كافياً أو مُقنعاً، فقعودهم عن القتال، إن كان قتالاً، كقعودهم في سائر الأشهر المحرمة على السواء، فما بال هذا الشهر سُمي بذلك دون غيره منها؟ . . . وقعودهم عن الأسفار وطلب الكلا والميرة قولٌ غير صحيح، ففي هذا الشهر يقوم موسم سوق عكاظ، أكبر أسواق العرب، وأعظم متندياتهم الاجتماعية، فكانوا يرتحلون إليه جماعات، من مختلف بلاد العرب، للمتاجرة والامتياز، ولقضاء حاجات شتى، أو ليكون لهم منه محطة في طريقهم إلى كعبة مكة للقيام بمناسك الحج . . . وإذا كان المراد بقعودهم عن الأسفار وطلب الكلا، قعودهم عن الارتحال إلى البوادي لانتجاع مواضع الكلا، فهو غير صحيح أيضاً، لأن التبدّي في موسم الخريف الآتي يبدء أواسط هذا الشهر!

ويقال إن مادة «قعد» لم ترد في كل اللغات السامية، ولكنها جاءت في السريانية بمعنى «الرُكُوع وتثني الركب»^(١)، وهو معنى يجعل لها صبغةً دينيةً . . . أما في العربية فمعناها القعود من قيام، والقعدة: المرة من القعود، والقعدة: مقدار ما يأخذه القاعد من المكان لقعوده، ويقال: رجل قاعد عن الغزو، إذا كان لا يمضي إلى القتال، ويقال لمواضع قعود الناس في الأسواق: المقاعد^(٢) . . . وبالجمع ما بين العربية والسريانية يتبين لنا أن شهر ذي القعدة إنما سُمي بذلك لأنه شهر للنسك والعبادة، يقعدون فيه عن القتال، وتقعد طوائف كثيرة منهم في الأسواق، تأخذ مقاعدها منها أثناء انعقاد مواسمها في هذا الشهر، كسوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق الرابية بحضرموت.

(١) أسماء الأشهر في العربية: ٧٦.

(٢) لسان العرب: ٣/٣٥٧، وتاج العروس: ٤٤/٩ - ٤٦، ٦٠ (قعد).

ويغلبُ أن يكون شهرُ آبٍ (أغسطس) الظرفَ الطبيعيَّ لموقع شهر ذي
نقعدة في الأصل، ولكنه في تطوُّرٍ لاحقٍ، وبعدما جرى تثبيتُ شهر
نُسرَيانيين في سنة الشمس وأزمنتها، صار يتقدَّم أحياناً على شهر آب، ويأتي
غالباً بين شهري تمُّوز (يوليو)، وآب (أغسطس)... ويلاحظ هنا أمران:

الأول: ما كان لشهر آب من الصبغة الدينية عند الأقوام القديمة، وهو
ما ستحدث عنه في كلامنا على شهر ذي الحجة.

والثاني: أن نجم «سُهَيْل» المشهور يَطْلُعُ نحو الرابع عشر من شهر
آب^(١)، أي في العَشر الأخير من ذي القعدة، وحينئذٍ يبدأ عند العرب موسمُ
الترُّبُّع في المناجِع والخروج إلى البادية، أو قصد كعبة مكة لأداء فريضةِ
الحجِّ في شهر ذي الحجة.

* * *

⑨ - شهر ذي الحجة:

وهو الشهرُ الثاني عشر والأخير من شهور العرب، سُمِّيَ بذلك
لإيقاعهمُ الحجَّ الأكبرَ إلى مكة فيه، وعلى هذا كلُّ المؤرِّخين والأخباريين^(٢).
وكان مرَّ بنا أن عرب الجنوب كانوا يُسمُّونه: ذو حجتن، أي ذو الحجة،
وذلك لقيامهم بأداء فريضة الحجِّ فيه إلى مكة. أمَّا قولُ جواد علي بأن مكة لم
تكن مَحَجَّةَ أهل اليمن^(٣)، فقولٌ فيه نظرٌ! ويمكنُ تَفْنِيدُهُ من جانبين،

(١) الأنواء: ٩٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/٣٩٥، ومروج الذهب: ٢/١٨٩، والأزمنة والأمكنة: ١/٢٧٨، وصحُ
الأعشى: ٢/٤٠٢، وعجائب المخلوقات: ١١٢، والمفصل: ٨/٤٦١، وأسماء الأشهر:
٧٦-٧٧.

(٣) المفصل: ٨/٤٧٨، ٤٧٩.

أولُهما: إذا لم يكن عربُ الجنوب يحجُّون إلى كعبة مكة، فما الذي بدا لأبَرَهةَ حتى بنى معبدَ القُلَيْسِ بصنعاء، وفي نَتِته أن يصرفَ جميعَ العرب للتعبد فيه، والحجُّ إليه، لا إلى مكة، فلما أخفق في ذلك، قام بحملته المعروفة يريدُ هدمَ الكعبة؟ وثانيهما: ما معنى تواتر الأخبار عن كسوة ملوك اليمن بناء الكعبة في كثير من السنين؟ هذا، مع علمنا بأن كعبة نجران كانت محجةً لأهل اليمن، ومثلها بيتُ رثام بصنعاء، ولكن كعبة مكة كانت محجةً لكل العرب، وشهر ذي الحجة، أو ذو حجتن، إنما كان لأداء فريضة الحج إليها.

وفي تقديرنا أن هذا الشهر كان يُوافق شهرَ أيلول (سبتمبر) في التقويم السرياني والرومي، ثم صار في تطوُّر لاحقٍ يقع بعضُهُ في شهر آب (أغسطس)، وبقِيته في شهر أيلول. ويؤيِّدُ هذا التقديرُ أن «شهر آب كان في نطاق بعض الديانات ظرفاً لإيقاع طائفةٍ من الشعائر. وللإهود فيه، حسب محلِّه من سنتهم، ممارسةُ صيام إحياءٍ لتذكارات، وللمسيحيين فيه، حسب محلِّه من السنة الشمسية، ثلاثة أعياد: عيدُ التجلي، وعيدُ العذراء، وعيدُ شهادة يوحنا المعمدان»^(١). . . . وللعرب في ذي الحجة الحجُّ إلى بيت الله الحرام بمكة، ويبدو أنهم كانوا يحرصون على أن يظلَّ موعدُ حجِّهم موافقاً موعدَ نُضج غلاتهم، والمعروفُ أن «آب» جذرٌ بابليٌّ معناه الغلَّةُ والثمرُ الناضج، ولذلك كانوا، كلما تقدَّمت سنةُ القمر على سنة الشمس، يطلبون من فقهاءهم تأخيرها ليظلَّ موقعُ ذي الحجة ثابتاً بين شهري آب وأيلول، وليظلَّ موعدُ الحجِّ موافقاً موسمَ نضج الغلات . . .

وهناك نصٌّ آخرُ يؤيِّدُ هذا المذهبَ أيضاً في التقدير، وقد نُقلَ عن

(١) معجم الملايلي: ١٧ (القسم الأول من المجلد الأول).

مُؤرَّخ روماني^(١)، عاش في القرن السادس الميلادي، ذكر فيه أن عَرَب العراق كانوا يجعلون في السنة شهرين حَرَمًا لآلهتهم، لا يَغزُون فيهما، ولا يُقاتِلُ بعضُهم بعضاً، يقعان في تَمُوز وآب (يوليو وأغسطس) . . . وعَدَّ جواد علي هذا النصَّ إشارةً قِيَمَةً إلى وجود الأشهر الحُرُم عند عرب الشمال، ودليلاً واضحاً على أنها كانت ثابتة لا تدور، فلا يقعُ حَجُّهم مرَّةً في الشتاء، ومرَّةً في الصيف، تارةً في الربيع، وتارةً في الخريف، فحجُّهم ثابتٌ، وأشهرهم ثابتة^(٢).

وإذا نظرنا في هذا النصَّ كَرَّةً أُخرى وجدنا أن شهرَي تَمُوز وآب ربما كانا يوافقان وقتنِ شهرَي ذي القعدة وذِي الحِجَّة المحَرَّمَيْن أيضاً عند عرب الحجاز، وذلك حينما «كان شهرُ آب الشهرَ الثاني عشر عند السريانيين»^(٣)، قبل أن يُنقل رأسُ السنة الشمسيَّة إلى تشرين الأول (أكتوبر)، وكان الشهرَ السادسَ في السنة لما كان آذارُ (مارس) رأسَ السنة^(٤). وبينما صارت شهور العرب في العراق والشام ثابتةً في سنة الشمس، ظلَّت شهورُ العرب في

(١) بروكوبيوس - PROCOPIUS : أمين سرُّ القائد بليزاريوس أعظم قادة جستنيانوس. له كتابٌ في أخبار العرب، وآخرُ في تاريخ عصره.

(٢) المفصل: ٨ / ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٣) معجم الملايلي: ١٧ (حرف الألف).

(٤) كان شهرُ رَجَبٍ في زمانٍ مُتَقَدِّمٍ يُقابل شهرَ آذار في التقويم السرياني، وكان كلاهما رأسَ السنة: الأولُ عند العرب، والثاني عند أهل الشام والعراق وكثير من الأمم الأخرى. ثم صار شهرُ رَجَبٍ بعدنِذ يُقابل شهرَ نَيْسانَ لما نُقل أولُ السنة إلى هذا الشهر. وكذلك كان شهراً ذي القعدة وذِي الحِجَّة يُقابلان شهرَي تموز وآب، وبانتقال أول السنة إلى نيسان، صاراً بعدنِذ يُقابلان شهرَي آب وأيلول. ومن هنا كانت ملاحظة المؤرَّخ الروماني عن تحريم عرب الشمال شهرَي تموز وآب، في مُقابلة ذي القعدة وذِي الحِجَّة عند عرب الوسط . . .

الحجاز قمرية، يجري تأخيرها بالكبس كلما تقدّمت، ليظلّ موسم الحجّ ثابتاً في مواعده من أزمّة الشمس.

وإذا كان القيام بشعائر الحجّ والتقرب إلى الله وجه التسمية لهذا الشهر بذى الحجة، فلا شك في أنها تسمية قديمة، لأن الحجّ في العرب قديم، يعود العهد به إلى أيام النبي إبراهيم عليه السلام. والحجّ في الأصل كلمة سامية مشتركة، كانت تفيد في الأصل معنى الرقص، ثم معنى الطواف، ثم معنى العيد... أمّا الحجّ بمعنى القصد، وزيارة الأماكن المقدسة، فتطوّر ثانوي في الدلالة. ومن المعلوم أن الرقص كان طقساً، تُمارسه الشعوب القديمة، في المواسم والأعياد الدينية، ولم يشذّ العرب عن سائر الشعوب، بل إن الأخبار القليلة التي وردت عن الجاهلية تشير إلى أنهم كانوا يرقصون في أعيادهم^(١).



وأخيراً، وبعد عرض أسماء شهور العرب، وتقليب معانيها، والاستعانة بالمأثورات لبيان حقيقة العلّة والدلالة في تسمية كلّ شهر منها، بات من الجليّ أن أهل الحجاز كانوا يتبعون تقويماً شمسياً قمرياً، وأن شهورهم كانت في الأصل ثابتة، لا تدور في الأزمنة، أي في الفصول، وإلا فلم يكن هنالك معنى لتسميتها بأسماء لها كلّ تلك الدقّة في الدلالة على حالات الطبيعة والاجتماع، والحرّ والبرد، والمواسم... ولا يُمكن لعاقلي أن يقبل بما زعمه أهل الأخبار عن ورود تلك الأسماء اتفاقاً ومصادفة، من غير رويّة أو علم أو تحقيق. صحيح أن العرب كانوا، كسائر الأمم،

(١) أسماء الأشهر في العربية: ٧٧.

يعتمدون الأهلةَ لافتتاح شهورهم، ومُتَابعة شؤونهم اليوميّة، ولكنهم كانوا أيضاً مِنْهُمْ يعملون على تثبيت شهورهم في الأزمنة، كي تظلّ معانيها مُتَوَافِقَةً مع مواسم زراعتهم، وتجاريتهم، وعباداتهم، وحَجَّهم، وأسفارهم. وسنجدُ في القسم التالي بحثاً عن قسمة الفصول الطبيعيّة عند العرب، يؤيّدُ ما توصلنا إليه في موضوع الشهور.



جدول أسماء الشهور
كما كانت عليه عند الأقوام القديمة
حينما نُقل رأسُ السنة من نيسانَ (أبريل) أو رَجَبٍ إلى تشرين (أكتوبر) أو صَفَرٍ

البابلية	السريانية	الأرامية - النعلمية	العبرية	العربية الشمالية	شهور العرب
تشرين، تشرينم	تسري قدم	تسري	تسري، تسري	تشرين الأول	صَفَرُ الأول المحرَّم
شمانو ^(١)	تسري أخزي	كَنُون	مرحشوان ^(٢)	تشرين الثاني	صَفَرُ الثاني
كَنَلو	كنون قدم	كسلول	كسلو	كانون الأول	ربيع الأول
كَبُنْتُ، كُنْطِرُو	كنون أخزي	كَبُنْتُ	كَبُنْتُ	كانون الثاني	ربيع الآخر
شَبَطُ، شَبَاطو	سباط، شباط	شبط	شباط، شبات	شباط ^(٣)	جمادى الأولى
أدارو	أدر	أدر	أدر	آذار	جمادى الآخرة
نيسانو	نيسان	نيسن	نيسن، أيب	نيسان	رجب
إيَّارو ^(٤)	إيَّار	إيَّار	إيَّار	آيار	شعبان
سيوانو	حزيران	سيون	سيون	حزيران	رمضان
تَمُوزو	تموز	قنين	تموز	تموز	شَوَّال
أَبو	آب	آب	آب	آب	ذو القعدة
أَلُولو	أيلول	ألول	ألول	أيلول	ذو الحجة

- (١) شَمَانو: أي ثمان، وكان الشهر الثامن ابتداءً من نيسان.
- (٢) مرحشوان: أصل الكلمة «وَزَح شَمَن» أي شهر ثمان، ثم انقلبت في النطق إلى مرحشوان.
- (٣) شباط: معناها في الأكادية وَبَاءٌ، وكذلك في الآشورية، وَسَبَاط في العربية تعني الحمى والوباء، وبذلك سُمِّي الشهر. وقد أثبتت الاكتشاف الأثرية أن اسمَ هذا الشهر كان معروفاً في القرن التاسع ق. م.
- (٤) الإيَّار والإيَّار: الريح الحارَّة، من الأَوَّار، وهي كذلك في اللغات السامية، وفي شعبان الذي يُقابل آيار، تطلُّع الثريا ويستدُّ الحرُّ. وإيَّار الشهر الثامن في السنة السريانية، وكذلك شعبان في العربية.

جدول بمواقع شهور العرب من شهور السريانيين والروم، بعدما جرى تشبيته
في الفصول الأربعة لِسَنَةِ الشمس، وذلك على أساس أن الأوَّل من المحَرَّم
والأوَّل من تشرين الأول كليهما كان يقع في أول فصل الخريف، وعلى فرض
أن هذا ما كانت عليه هَيَاةُ الزمان سنة (١٠ هـ = ٦٣٢ م).

الشهر العربي	موقعه من شهور الشمس مُقَدَّرًا على التقريب	عدد أيامه
صفر الأول (المحرَّم)	من ١ تشرين الأول إلى ٣٠ تشرين الأول	٣٠
صفر الآخر	من ٣١ تشرين الأول إلى ٢٨ تشرين الثاني	٢٩
ربيع الأول	من ٢٩ تشرين الثاني إلى ٢٨ كانون الأول	٣٠
ربيع الآخر	من ٢٩ كانون الأول إلى ٢٦ كانون الثاني	٢٩
جُمادى الأولى	من ٢٧ كانون الثاني إلى ٢٥ شباط	٣٠
جُمادى الآخرة	من ٢٦ شباط إلى ٢٦ آذار	٢٩
رجب	من ٢٧ آذار إلى ٢٥ نيسان	٣٠
شَعْبَان	من ٢٦ نيسان إلى ٢٤ أيار	٢٩
رمضان	من ٢٥ أيار إلى ٢٣ حزيران	٣٠
شَوَّال	من ٢٤ حزيران إلى ٢٢ تموز	٢٩
ذو القعدة	من ٢٣ تموز إلى ٢١ آب	٣٠
ذو الحجة	من ٢٢ آب إلى ١٩ أيلول	٢٩
الأيام التي تتقدَّم بها سنة القمر على سنة الشمس، وهي ما يسمى بأيام النسيء.	من ٢٠ أيلول إلى ٣٠ أيلول	١١ يوماً

المطلب الثاني - مذاهب العرب في قسمة الفصول والأزمنة :

لعلَّه من الواضح، أن العرب أقامت علمها بطبائع الأزمنة، وانفصال الفصول، على ما كان يَصْحَبُ، أو يُعْقِبُ مَطَالِعَ النجوم، ومساقطها، من التقلبات الجوية، كالأمطار، والرياح، والحرّ والبرد. وجعلت بين ذلك كله علائقَ زمنية، تعرفُ بها الأوقات وتتابعها، والفصول وتواليها. . .

أما تعيينُ يومٍ مخصوصٍ لدخولِ كلِّ فصلٍ، فأمرٌ ربما كان من صنْع أهل الرصد والحساب، لأن العرب كانوا يعرفون مواقيت انفصالِ الفصول، بمراقبتهم حركة النجوم، ولا سيما منها منازل القمر، فكلما طلع نجمٌ، سقطَ نجمٌ، وأغقبَ ذلك نوءٌ مُدَّتْهُ معلومةٌ منهم، وصِفَتُهُ معروفةٌ عندهم، وكان فيهم خُبراءُ بالنجوم والأنواء وتقلبات الطبيعة، ذكر ابنُ كناسة منهم: بني مارية من قبيلة كلب، وبني مرّة بن همام من شيبان^(١)، وغيرهم، يتوارثون العلمَ بينهم. وعلى ذلك، يجبُ أن نُقرّر ابتداءً أنَّ العرب، لما قَسَمَتْ سَتَّها إلى فصولٍ، وأزمنةٍ طبيعيةٍ، جعلت ذلك بناءً على ما عرفته أوطانها من هطول الأمطار، وهبوب الرياح، وإقبال الحرّ والبرد، وإذبارهما، وطلوع النبات واكتياله^(٢)، وهنيج الكلأ^(٣)، ويئسه^(٤). كما جعلت أوقاته محدودةً بمَطَالِعِ النجوم ومساقطها^(٥)، على ما بين البلدان من تفاوتٍ يسيرٍ في أيام رؤيتها، فربما طلع النجمُ ببلدٍ في وقتٍ، وطلع ببلدٍ آخر في وقتٍ آخر، إما

(١) الأزمنة والامكنة: ١٩٩/١، والمفضل: ٤٢٥/٨ - ٤٢٦.

(٢) اكْتَهَلَ: النبات، نَمَّ طَوْلُهُ ونماؤه.

(٣) الهَنِيجُ: معناه هنا الاصفرار والجفاف.

(٤) الأنواء: ١٠٤، والأزمنة والامكنة: ١٧٤/١.

(٥) الأزمنة والأنواء: ٩٨.

قبله، وإما بعده بأيام^(١).

وذهبوا كذلك في عدد الفصول، وترتيبها، وتحديد أوقاتها، وفي تسميتها، مذهباً مختلفاً عن مذاهب أهل الحساب والرصد... فمنهم من جعل السنة ستة أزمنة، ومنهم من جعلها أربعة أزمنة، ولعلها في حقيقة الأمر زمانين بارزان لا أكثر: شتاء وصيف، مع قصر الأول وطول الثاني...

١ - فأما من جعلها ستة، فإنه قسم السنة نصفين: شتاء وصيفاً، وبدأ بالشتاء فجعله أول السنة، لأن الله قدّمه في الذكر على الصيف، ولأنه زمن الأمطار التي يخرج بها النبات، وتحمل الأشجار. ثم قسم الشتاء على ثلاثة، والصيف على ثلاثة، فصارت السنة كلها ستة أزمنة، سمي كل زمن منها باسم يتفق وطبيعة ما يكون فيه، وقدر له من السنة شهران، ومن منازل القمر أربعة وثلاثين^(٢)، فأما أزمنة الشتاء الثلاثة فهي: الوسمي، ثم الشتاء، ثم الربيع، وكلها شتاء، وأما أزمنة الصيف الثلاثة فهي: الصيف، ثم الحميم، ثم الخريف، وكلها صيف، إلا أن بعضهم يقول في أزمنة الشتاء: الوسمي، ثم الشتوي، ثم الدفئي، ولا يذكر الربيع^(٣)... وأظنه لم يذكره، لأن الدفئي نسب إلى الدفا، وهو سخونة الجو، تأتي بعد انصراف البرد، في إقبال الربيع، وهو بهذا المعنى زمن يقدم بين يدَي الربيع، وكأنه جزء منه، ويأتي بمعناه أيضاً الدفئي^(٤). ويؤكد ما ذهبنا إليه أن كلمة «دنا» في السبئية

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢٠١/١.

(٢) صبح الأعشى: ٤٤٣/٢، والأزمنة والأنواء: ٩٨ - ٩٩، ولسان العرب: ١٠٣/٨ (ربيع)، والأزمنة والأمكنة: ١٦٥/١.

(٣) الأزمنة والأنواء: ٩٦ - ١٠٠، والأزمنة والأمكنة: ١٦٣/١ - ١٦٥، و١٩٨/١ - ١٩٩، وصبح الأعشى: ٤٤٣/٢، ولسان العرب: ٤٢١/١٤ (شتاء)، و٦٣/٩ (خرف).

(٤) تاج العروس: ٢٢٧/١، ولسان العرب: ٧٦/١، ٧٧ (دفا)، و٧١/١ (دنا).

والجُمُيرِية، معناها الربيع، أو مَطَرُ الربيع، وشَهْرُ «ذو دَنَا» هو شَهْرُ الربيع^(١). أمَّا الوَسْمِيُّ فُسَمِيَ بذلك لأنه أوَّلُ المَطَرِ، ينزل في أوَّلِ السَّنة، قَسِمُ الأَرْضَ بالنبات^(٢). والشتويُّ نُسِبَ إلى الشتاء^(٣)، والصَّيْفُ نُسِبَ إلى الصيف، ويأتي عادةً بعد انصراف الربيع^(٤). والحميمُ: القَيْظُ، وهو في الأصل ماءٌ شديدُ الحرارة^(٥)، سُمِيَ به المَطَرُ يأتي في القَيْظِ بعد اشتداد الحرِّ^(٦)..

وإذا أردنا أن نقول شيئاً في هذه القسمة، فلا بُدَّ أن نُشير أولاً إلى أن تقديم العربِ الشتاءً على الصيف، لا يعني تقديمَ البردِ على الحرِّ، وإنما تقديمَ المَطَرِ والماءِ على الجفافِ والقَحْطِ. وعلى ذلك كان أَحَقُّ أن يُتَدَّه فيها بالخريف، لأنه، كما أكَّدَ الأصمعيُّ، أوَّلُ ماءٍ المَطَرِ في إقبالِ الشتاء^(٧)، ولأن نَوَةَ الوَسْمِيِّ، كما ذكر ابنُ كُنَاسة، أوَّلُ أنواءِ الخريف^(٨)، والعربُ تُسمِّي الخريفَ ربيعاً لوقوعِ أوَّلِ المَطَرِ فيه^(٩). وهكذا يكون أوَّلُ أزمَةِ الشتاء الثلاثة: الخريفُ، أو الوَسْمِيُّ وهو ربيعُ الماءِ والعُشْبِ، وأوَّلُ أزمَةِ الصيف الثلاثة: الربيعُ، وهو ربيعُ الكمأةِ والكلأِ والنباتِ، ويُفهم مما ذكره الرِّيَديُّ أنَّ الصيفَ إن لم يكنِ القَيْظَ نفسَهُ، فهو زمنٌ يأتي بعد الربيعِ

(١) المفصل: ٤٤٤/٨، ٤٤٩.

(٢) الأزمَةُ والأنواء: ١٧٩، وصبح الأعشى: ١٩٢/٢.

(٣) لسان العرب: ٤٢١/١٤ (شتا).

(٤) تاج العروس: ٤٣/٢٤ (صيف).

(٥) فقه اللغة: ٢٨٦.

(٦) لسان العرب: ١٥٥/١٢ (حُم) ومحيط المحيط: ١٩٧.

(٧) فقه اللغة: ٢٨٣، وصبح الأعشى: ١٩٢/٢، ولسان العرب: ٦٣/٩ (خرف).

(٨) الأزمَةُ والامكنة: ٢٠٠/١.

(٩) لسان العرب: ١٠٣/٨ (ربيع)، و ٦٣٦/١٢ (وسم).

وقبل القيظ^(١)، أي قبل الحميم، وهذا يتفق مع كَوْنِ أَوَّلِ أزمَةِ الشتاء، وأَوَّلِ أزمَةِ الصيف، كليهما ربيعاً، كان للعرب فيه موسمٌ كبيرٌ للتبدي، والترُّع، وانتِجَاعُ مَسَاقِطِ الغَيْثِ، ومَوَاضِعِ الكَلأِ والكمأة والنبات... على أن هذا المذهب في قِسْمَةِ السَّنة إلى ستة فصول، لم يكن، فيما ذكر المرزوقي، مذهباً عاماً في العرب جميعاً، وإنما كان مذهبَ أهلِ الحجاز فقط^(٢). وربما لم يكن كلُّ أهلِ الحجاز كذلك، فقد كان من أقوالهم: أَعْطُ النَّاسِ عَيْشاً مَنْ كَانَ يَتَرْتِعُ جُدَّةً، وَيَتَقَيِّظُ الطَّائِفَ، وَيَشْتُو بِمَكَّةَ^(٣)... ذكرَ التُّرُّعَ، والتَّقِيْظَ، والشَّتُوَ، وكأنه أراد أزمَةَ ثلاثة، وإنما أراد في الحقيقة أربعة، فالترُّعُ كما أوضحنا موسمٌ يقعُ في زَمَتَيْنِ: الخريف، وفيه الربيعُ الأوَّلُ، والصيف، وفيه الربيعُ الثاني، ويبدو أنهم كانوا يتجمعون فيهما جُدَّةً، وكانت يومئذٍ باديةً، تمتدُّ من البحر الأحمر غرباً، إلى ذات عِرْقٍ ووادي نخلة شرقاً، تسكنها أحياءٌ من قُضَاعَةٍ، وترعى فيها أنعامها^(٤).



٢ - وأما مَنْ جعلَ السَّنة من العرب أربعةَ أزمَةٍ، فإنه بدأ فقسَمَها أيضاً نصفين: شتاءً وصيفاً، وقَدَّمَ الشتاءَ على الصيف، وجعلَ الفاصِلَ بينهما نَجْمَ «الصَّرْفَةِ»، وهو من منازل القمر، فإذا طَلَعَ مع الفجر فذلك فصلُ الخريفِ وأوَّلُ الشتاء، وإذا غاب مع الفجر فذلك فصلُ الربيعِ وأوَّلُ الصيف، ويكون

(١) تاج العروس: ٤٢/٢٤ (صيف).

(٢) الأزمَةُ والأمكنة: ١٦٥/١.

(٣) معجم البلدان: ١٢/٤. و (تَقَيِّظُ الطَّائِفَ: أي أقام بها زَمَنَ القَيْظِ، والقَيْظُ: شدة الحرارة).

(٤) المرجع نفسه: ١١٥/٢.

بين طُلُوعِهِ نحو السابع من شهر أيلول (سبتمبر)، وغُرُوبِهِ نحو السابع من شهر آذار (مارس) ستة أشهر كاملة، هي نصفُ السنة. وكانت العربُ تقولُ: الصَّرْفَةُ نَابُ الدَّهْرِ^(١)، لأنها تَفْتَرُّ عن فَصْلِي الرِّمَاتَيْنِ: البردِ والحرِّ، وإنما سُمِّيَ هذا النجمُ بالصَّرْفَةِ لأنصِرافِ الحرِّ عند طُلُوعِهِ، وأنصِرافِ البردِ عند سُقُوطِهِ.

ثم قَسَمُوا الشَّتَاءَ نِصْفَيْنِ، والصَّيْفَ نِصْفَيْنِ، فصارت السنةُ كُلُّهَا عندهم أربعةَ أَزْمِنَةٍ، حِصَّةُ كُلِّ زَمَنِ مِنْهَا ثلاثةُ شهورٍ، وذلك عَدَدُ الفُصولِ الطَّبِيعِيَّةِ عند مُعْظَمِ الأُمَمِ. ولكنَّ العربَ فارقَتْهم في أسمائها، وتحديد أيامِ دُخُولِهَا، وذهبت في ترتيبها، كما ذهب السِّريانيُّونَ، إلى الابتداءِ بفصل الخريفِ، وسَمَّيَتْهُ الرِّبْعَ الأوَّلَ، لأنه موسمُ النَّدى والمطرِ، وجعلت دُخُولَهُ لثلاثةِ أيامٍ تمضي من أيلول (سبتمبر). ويجب أن لا نَتَوَقَّفَ كثيراً عند تسميتهم الخريفَ ربيعاً، لأنهم يُسَمُّونَ المطرَ والطلَّ والنَّدى والزهر والعشبَ والكلأَ والكمأةَ كُلُّهَا ربيعاً، وفي الخريفِ أيضاً يَخْتَرِفُونَ ما نَضَّجَ وأدرك من الثمار.

ثم يأتي بعد الخريف فصلُ الشتاء، وجعلوا دُخُولَهُ لثلاثةِ أيامٍ تمضي من كانون الأول (ديسمبر)، ثم فصلُ الصيفِ، وهو الذي يُسَمِّيهِ الناسُ فصلَ الربيعِ، ويُسَمِّيهِ العربُ الربيعَ الثاني، وفيه يبلُغُ النباتُ مُنتَهَاهُ، وتأتي فيه الكمأةُ والكلأُ والنَّوْرُ، ودُخُولُهُ لخمسةِ أيامٍ تخلو من شهر آذار (مارس). ثم فصلُ القَيْظِ، وهو صَمِيمُ الصيفِ، ودُخُولُهُ لأربعةِ أيامٍ تمضي من شهر

(١) لسان العرب: ١٨٩/٩ (صرف)، وصبح الأعشى: ١٧٧/٢، والأزمنة والأمكنة: ١٦٧/١،

١٧٠، ١٩١، ٢٠٢-٢٠٣، والأزمنة والأنواء: ١٥٠، ١٧٧، وعجائب المخلوقات: ٨٠،

والأنواء: ملحق منازل القمر...

حزيران (يونيو)^(١).

ويبدو أن هذا التقسيم كان مذهب العرب في الشمال، وقد حَقَّق ابنُ الأجدابي في هذا الأمر، وأكَّد على أن الأشبهُ بمذهب العرب في وسط الجزيرة هو الابتداء في القِسْمة من لَدُن سقوط منزل «الفرغ الثاني أو المؤخَّر» في أفق المغرب نحو العشرين من شهر أيلول، وذلك يكون أوَّل السنة، ودُخُول فصل الخريف^(٢).

وكان العربُ في جنوب شبه الجزيرة، كالعرب في وَسْطِها وشمالها، يَقسِمُونَ السَّنةَ أيضاً إلى أربعة أزمَنَةٍ، بدليل ما جاء في تراثهم من أسماء الفصول. وكانوا يبتدئون بفصل الخريف، وهو عندهم: «خَرْفُن»، أي الخريف، ثم فصل الشتاء، ويُسمُّونه «ضَرْبُن»، ومن معاني الضرب والضرب في العربية: المطرُ والصقيعُ والبردُ الشديدُ والريحُ^(٣). . . ثم فصل الربيع، ويُسمُّونه «دَنَّا»، ثم فصل القَيْظ، ويُسمَّى «قَيْظُن»^(٤).

غير أن الفصولَ الأربعةَ هناك تَتَقَدَّمُ أزمانُها الأزمانَ المعهودةَ للفصول في التوقيت الشمسي، فالخريفُ هو الشتاءُ في الجنوب، والشتاءُ هو الربيع. والربيع هو الصيفُ، والصيف هو الخريف^(٥).

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٤، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٤ - ١٧٥، ٢٠٢ - ٢٠٣، ومروج الذهب: ٢/١٩٢، وصبح الأعشى: ٢/٤٤٢ - ٤٤٣، والأزمنة والأنواء: ٩٦ - ٩٧، ولسان العرب: ٨/١٠٣ (ربيع)، و ٩/٢٠٢ (صيف)، و ٧/٤٥٦ (قَيْظ)، و ١٤/٤٢١ (شتاء)، و ٩/٦٣ (خرف).

(٢) الأزمنة والأنواء: ٩٩ - ١٠٠.

(٣) لسان العرب: ١/٥٤٦ - ٥٤٧، وتاج العروس: ٣/٢٤٧، ٢٥٠ (ضرب).

(٤) المفصل: ٨/٤٤٣.

(٥) محمد بن أحمد الشاطري - أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة بجدة (١٩٨٣): ١٩.

ونقل جواد علي عن بعض المستشرقين، أن في عرب الجنوب مَنْ كانوا يقسمون السنة أيضاً ثمانية وعشرين قسماً، كلُّ قسمٍ منها مُدَّةُ ثلاثة عَشَر يوماً، وكانوا يعتمدون هذه القسمة في زراعتهم ومعاملاتهم، وبيتدئون هذه السنة من زمن «ذو قَرَعَم»^(١).

ومن الواضح أن هذا التقسيم إنما هو منازل القمر عند عرب الوسط والشمال، وأن «ذو قَرَعَم» هو نفسه منزلة «الْفَرَع» المقدَّم أو المؤخَّر، فإن كان المؤخَّر، فهو ما كان يُسمَّى عندهم قَرَعُ الربيع، وبه كان ابتداءُ سِتِّتهم، وهو ما أكَّده ابنُ الأجدابي كما أشرنا قبل قليل، وهذا يُثبت أن العرب في الشمال والوسط والجنوب كانوا يأخذون في حساب السنة بدورة منازل القمر، وهو مطابقٌ لحساب السنة الشمسيَّة. ويبدو أن أهل حضرموت ما يزالون يعتمدون منازل القمر في التاريخ، فقد وجدتُ نصّاً يصفُ الطقسَ هنالك جاء فيه «... وأشدُّ أيام السنة حرارةً الأربعيَّةُ، وهي أربعون يوماً، تبدأ من (٧) الغَفَر، أي (٤) أيار - مايو، وأشدُّ من هذه الأربعيَّة حرارةً المُثَمَّنَاتُ، وهي ثمانية أيام: الأربعة الأيام الأواخرُ من منزلة السَّوْلَة، والأربعة الأيام الأوائلُ من منزلة النعائم»^(٢). . . وهو نصٌّ واضحٌ يثبتُ أن القومَ ما يزالون يعتمدون منازل القمر إلى العصر الحاضر.

ووفقاً لما ذكرناه آنفاً عن مواعيد أنواء المنازل، واتخاذها أعلاماً على انتقال الزمن، يتبيَّنُ لنا أن ابتداء نَوِّ الغَفَر، وهو من المنازل الجنوبية، يكون في حضرموت يومَ الثامن والعشرين من تَيْسَانَ (أبريل)، أي بعد رؤيته في

(١) المفصل: ٤٤٥/٨.

(٢) أدوار التاريخ الحضرمي: ١٨.

الشمال ساقطاً في أفق المغرب بأحدَ عَشَرَ يوماً، حيث يُرى هنالك يوم
السابع عشر من نيسان.



٣ - والواقعُ أن تقسيم السَّنَةِ، سَنَّةَ أَزْمَنَةٍ، أو أربعةً، ليس أكثرَ من
تقسيم نظريّ في جزيرة العرب، وهو لا يعني قطعاً أن الطبيعة هنالك تختلفُ
اختلافاً بَيِّناً، كلما انقضى زَمَنٌ وأقبلَ زَمَنٌ، أو أن يومَ دُخُولِ الزَّمَنِ إنما هو
حدٌّ قاطعٌ بينه وبين الزمن الذي بعده، أو أن عِدَّةَ أيامِ الفَصلِ مُساوِيَةً لِعِدَّةِ
أيامِ الفصل الآخر، مُتَمَيِّزَةٌ منها^(١)... كلُّ هذا مذهبٌ في القول بعيدٌ من
الدِّقَّةِ والحقيقة، لأنَّ زَمَنِي الشتاءِ والصيفِ هما أكثرُ الأزمنة ظهوراً في جزيرة
العرب، والصيفُ أطولُها مُدَّةً، وأشدُّها وضوحاً، والشتاءُ أقصرُها وقتاً،
ويكاد الخريفُ يَسْتَفْرِقُ معظمَ أيامه، وَيَسْلُخُها بمواسمه وأمطاره. وبينما
مناطق الغُورِ، وسهلُ رُكْبَةٍ، والحجازُ، والطائفُ تُنَمَطِرُ في الخريف، فإن
أهلَ اليمنِ يُنَمَطِرُونَ في القَيْظِ، ويخصِبُونَ في الخريف، ونِهَامَةٌ في فصول
السنة كلها طَيِّبَةٌ غداةً، ولياليها أطيبُ الليالي، لا تُؤذِي بِحَرٍّ مُفْرَطٍ، ولا قُرٍّ
مُؤَذٍ، وفي الحديث: نِهَامَةٌ كبديعِ العسل، حُلُوٌّ أَوَّلُهُ، حُلُوٌّ آخِرُهُ. شَبَّهَهَا بَزَقِ
العسل، لأن هواءَهَا لا يَتَغَيَّرُ، فَأَوَّلُهُ طَيِّبٌ وآخِرُهُ طَيِّبٌ، وكذلك العسل^(٢).

ولعل هذا ما جعلهم يقسمون السنة نصفين: شتاءً وصيفاً، ويُقدِّمون
الشتاءَ على الصيف^(٣)، ثم يجعلون أواخرَ القَيْظِ داخلَةً في أوائلِ الخريف،

(١) المفضل: ٤٤٢/٨ - ٤٤٣.

(٢) لسان العرب: ١٠٣/٨ (ربيع)، و ٦٣/٩ (خريف)، و ٧/٨ (بدع)، ومهد العرب: ٢٨،
والمفضل: ٤٤٣/٨.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١٦٧/١.

قُبَيْلَ دُخُولِ أَوَّلِ السَّنةِ، وَهِيَ «أَرْبَعُونَ لَيْلَةً، يَخْتَلِفُ حَرُّهَا وَبَرْدُهَا، تُسَمَّى الْمُعْتَدِلَاتِ»^(١)، أَوَّلُهَا طُلُوعُ «سَهِيلٍ»^(٢)، وَهُوَ يَطْلُعُ فِي الْحِجَازِ نَحْوَ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ آبِ (أَغُسْطُس) ^(٣)، وَطُلُوعُهُ مُؤَذِّنٌ بِانْتِهَاءِ الْحَرِّ، وَشُرُوعِ النَّاسِ فِي الْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ فِي الْمَحَاضِرِ، إِلَى التَّجْعَةِ فِي الْمَبَادِي ^(٤)، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ: «إِذَا طَلَعَ سَهِيلٌ بَرَدَ اللَّيْلُ، وَخِيفَ السَّيْلُ...»^(٥). ثُمَّ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَرَابِيعِ فِي الْبَادِيَةِ، حَتَّى إِذَا سَقَطَ «الْفَرْغُ» الثَّانِي فِي أَفْقِ الْمَغْرِبِ نَحْوَ الْعِشْرِينَ مِنْ أَيْلُولِ (سَبْتِمِبِر)، أَيِّ بِانْقِضَاءِ اللَّيَالِي الْأَرْبَعِينَ الْمُعْتَدِلَاتِ تَقْرِيْبًا، أَصْبَحُوا جَمِيعًا وَقَدْ تَوَزَّعَتْهُمْ الْمَرَاتِعُ ^(٦)، وَاقْتَسَمَتْهُمْ الْمَنَاجِعُ ^(٧)، وَشَرَعُوا فِي مَوْسَمِ التَّبَدُّيِ الْأَوَّلِ مَعَ أَوَّلِ السَّنةِ وَابْتِدَاءِ الْخَرِيفِ...

وَإِذَا كَانَ الْخَرِيفُ، فِي الْأَصْلِ، إِسْمًا لِلْمَطَرِ يَأْتِي فِي آخِرِ الْقَيْظِ ^(٨)، أَوْ إِسْمًا لِأَوَّلِ مَا يَقَعُ مِنْهُ فِي إِقْبَالِ الشِّتَاءِ، أَوْ كَانَ إِسْمًا لِلْوَقْتِ الَّذِي تُذَرِّكُ فِيهِ الثَّمَارُ، فَتُخَرَفُ، أَيُّ تُجْتَنَى ^(٩)، لَكِنَّهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ صَارَ اسْمًا لِرَمَنِ تُفْتَتَحُ بِهِ السَّنَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ، بَلْ وَتُسَمَّى بِهِ أحيانًا، وَيَأْتِي عِنْدَ إِقْبَالِ الشِّتَاءِ،

(١) المرجع نفسه: ١٩٩/١، وتاج العروس: ٣٣٤/١٢ (صفر).

(٢) سَهِيلٌ: نَجْمٌ يَهَيُّ طُلُوعَهُ عَلَى بِلَادِ الْعَرَبِ أَوَّخِرَ فَصْلِ الْقَيْظِ.

(٣) الأنواء: ٩٦، وعجائب المخلوقات: ٨٠.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ١٩٩/١، و ١٢٥/٢، ولسان العرب: ٤٦٣/٤ (صفر)، وعجائب المخلوقات: ٨٠.

(٥) الأزمنة والأنواء: ١٧٣.

(٦) الرُّنْعُ: الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ رَغْدًا فِي الرَّيفِ، وَالزَّعْيُ فِي الْخَصْبِ.

(٧) الأزمنة والأمكنة: ١٢٥/٢.

(٨) الأزمنة والأنواء: ٩٦، والأزمنة والأمكنة: ١٧٠/١.

(٩) لسان العرب: ٦٢/٩ - ٦٣ (خرف).

بعد إدْبَارِ الْحَرِّ. وإذا كانت قِسْمَةُ السَّنَةِ عند العرب قامت في الأصل على سِتَّةِ أَزْمَنَةٍ، أو أربعة، أو اثنين فقط، فإن الخريف هو أَوَّلُ ما يأتي فيها جميعاً، زَمَنًا، أو فضلاً، أو مطراً وريبعاً، أو اختِرافاً للشار... وأما الليالي الأربعون الْمُعْتَدِلَاتُ، فإنها تأتي والحَرُّ يمضي مُدْبِراً، والخريفُ يقدِّمُ مُقْبِلاً، والزمانُ زمنُ نَدَى وَرَوْحٍ وَطَلٍّ وَغَيْثٍ، وحيثُ يكونُ إدْرَاكُ الشَّامِرِ، وصِرَامُ النخل، واجْتِنَاؤُهُ بُسْراً كان أو رُطْباً، وشِيَارُ الْعَسَلِ من خَلَايَاهُ، وَنِتَاجُ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ^(١)... وفيه يكون الوسميُّ وانتجاعُ الكَلَا الذي تُنْبِتُهُ أمطارُ الخريفِ، وَتَسْمُ بِهِ الْأَرْضُ^(٢)، وَتَسَمُّ الْخُضْرَةَ بعد الْجَفَافِ، وهو ما جعل العربَ تَتَقَلَّبُ في تسمية هذا الزمن، فَتُسَمِّيهِ وَتَسْمِيًّا تَارَةً، وخريفاً أو ربيعاً تَارَةً أُخْرَى، بينما سائرُ الناسِ تُسَمِّيهِ خريفاً^(٣).

فالوسميُّ إذن هو المَطَرُ الواقعُ في زمن الخريف^(٤)، وابتدأؤه أَوَّلُ غُرُوبِ كَوْكَبِ «الْفَرْغِ الْمُؤَخَّرِ» حوالي العشرين من أيلول (سبتمبر)، وانتهأؤه آخِرُ غُرُوبِ «الثريا» نحو الثالث والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، ومُدَّتُهُ خمسةٌ وستون يوماً على التقريب، وكانت العربُ تقول: ليس قبل «الْفَرْغِ الْمُؤَخَّرِ» وَتُسَمِّي، ولا بعد «الثريا» وَتُسَمِّي^(٥)، وأنَّ الْوَسْمِيَّ هو الخريفُ^(٦)، وكانت تُسَمِّي أيامه، ما بين تَوَلِّي الْقَيْظِ إلى إقبالِ البردِ والشتاءِ: الصَّفْرِيَّةَ،

(١) الأزمنة والأمكنة: ١٢٧/٢. والشيارُ: اجتناء العسل، وأخذُه من مواضعه، والشورُ: العسلُ المشورُ.

(٢) عجائب المخلوقات: ٨٤، ولسان العرب: ٦٣/٩ - ٦٥ (خرف).

(٣) الأزمنة والأنواء: ٩٦، ومروج الذهب: ١٩٢/٢.

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٧٩.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ١٨٣/١، ٢٠٠، وعجائب المخلوقات: ٧٧.

(٦) مروج الذهب: ١٩٢/٢.

وهي أوَّل الأزمنة عندهم^(١)، والصَّفْرِيَّةُ: النباتُ يَنبُتُ في أوَّل الخريف، والصَّفْرِيَّةُ: أوَّل السنة، وأوَّل الشتاء، والمطرُ يأتي في ذلك الوقت، ونتاجُ الإبل والغنم^(٢)... كلُّ أولئك نُسِبَ إلى الصَّفر، وهو نفسه ما سُمِّيَ به شهرًا أوَّل السنة عند العرب: صَفَرُ الأوَّل وصَفَرُ الآخِر، وهو ما سبق لنا الحديثُ عنه والبحثُ فيه، لما تكلمنا على الشهور عند العرب، فهل هنالك موضعٌ خيرٌ من هذا الزَّمن، يُمكن أن يقع فيه هذان الشهران؟ وإنما الصَّفر، كما رأينا، من الصُّفْرَةِ والصُّفُورَةِ، فأما الصُّفْرَةُ فلونٌ يعتري الأوراق في الخريف، قبيل سقوطها في هجمة الشتاء، وأما الصُّفُورَةُ فهي الخُلُوف، وكانت ديارُهم في المحاضر تَخْلُو منهم حينما يُغادِرُونها في هذا الزمن إلى المراعٍ والمناجع في البادية، وهو موسمُ التَّربيع الأوَّل عندهم، وموعدُ الخُروج إلى البادية، وهو الربيع الأوَّل، أي ربيعُ الطلِّ والتَّدى، وإذراكِ الثمار. وجاء في معاجم اللغة أن شجر الغضا يُنبتُ ثمرة تُسمى «الحَثرة»، تخرجُ فيه «أيام الصَّفْرِيَّة». تَسْمَنُ عليها الإبلُ وتُلبِنُ، أي يكثرُ لبنُها. وهذا دليلٌ على أن الصَّفْرِيَّةَ زمنٌ ثابتٌ من فصول السنة، يقع في شهري صَفَر، أيام خروج الناس إلى البوادي لانتجاع الكَلأ. ومن أقوالهم: ما بالدار صافِرٌ، أي ما بها أحدٌ^(٣)...

وعلى ذلك، فالخريفُ، والوَسْمِيُّ، والصَّفْرِيُّ، وموسمُ الربيعِ الأوَّل أو التَّربيع، كُلُّها أسماءُ لزمنٍ واحدٍ، هو أوَّل الأزمنة في سنة العرب، وأبداؤه

(١) لسان العرب: ٤٦٤/٤ (صفر).

(٢) تاج العروس: ٣٣٤/١٢، ولسان العرب: ٤٦٣/٤ - ٤٦٤ (صفر)، وصبح الأعشى: ٤٤٢/٢، والأزمنة والأمكنة: ١٩٨/١، وعجائب المخلوقات: ٨٠، والأزمنة والأنواء: ١٧٩.

(٣) تاج العروس: ٣٣٢/١٢، (صفر)، و ٥٢٩/١٠ (حثر)، ولسان العرب: ٤٦٢/٤، ٤٦٤ (صفر)، وفقه اللغة: ٥٨.

والليل بالنقصان^(١)... وكانت العرب تُسمِّي هذه الأيام، تأتي بعد انقضاء نوء الثريا: «شهر المُليَّساء»، وذكروا أنه وقت تنقطع فيه الميرة عنهم، ويستند البرد، ويقع بين الصَّفرية والشتاء^(٢)، وقالوا إن رجلاً من العرب قال لآخر: أكره أن تزورني في المُليَّساء، فقال: لم؟ قال: لأنه يَفُوتُ الغداء، ولم يُهَيَّأ العشاء^(٣)... كناية عن قصر النهار وطول الليل... فإذا كانت غاية قصر النهار وطول الليل تقع، كما عَرَضْنَا قبل قليل، بين أواخر تشرين الثاني وأواخر كانون الأول، وإذا كانت المُليَّساء تقع بعد شهرني صفر، وقبل شهرني جمادى، وهما الشتاء عند العرب^(٤)، فإن شهر المُليَّساء هو شهر ربيع الأول نفسه، وهو أواخر الخريف وأوائل الشتاء، وهو إذن دَلِيلُنَا على صحة ما ذهبنا إليه في موافقة الأول من فصل الخريف أو موسم الربيع الأول أو الوسمي للعشرين من أيلول، يوم سقوط منزل «الفرغ الثاني» في أفق المغرب.

وإذا لاحظنا أن العرب ابتدؤوا السنة بسقوط الفرغ الثاني، فإنهم ختموا نصف السنة بمنزل «الصَّرْفَة»، وجعلوا آخر نونها الفاصل بين نصفَي السنة: الشتوي والصيفي، وزمَنَي البرد والحر، فسقوطها علامة على انصرام نصف السنة الشتوي، وطلوعها علامة على انصرام نصف السنة الصيفي^(٥)... وهذا يُدَكِّرُنَا بما جُعِلَتْ عليه أسماء شهور العرب، فجاء نصفها أزواجاً

(١) الأزمة والأنواء: ١٤٠ - ١٤٢، وعجائب المخلوقات: ٨٢، وصبح الأعشى: ١٩٤/٢، والأزمة والأمكنة: ٢٠٤/١.

(٢) لسان العرب: ٤٣٢/٤ (شهر).

(٣) المرجع نفسه: ٢٢٢/٦ (ملى).

(٤) الأزمة والأمكنة: ١٦٨/١.

(٥) الأزمة والأنواء: ٩٩ - ١٠٠، والأزمة والأمكنة: ١٧٠/١، وصبح الأعشى: ١٧٧/٢.

ثلاثة، والنصف الآخر سنة أفراداً، فأما الأزواج فهي: الصَّفران، وشهراً ربيع، والجُماديان، وأما الأفراد فهي: رَجَب، وشعبان، ورمضان، وشَوَّال، وذو القعدة، وذو الحجة^(١). . . وهذا يعني أن الأزواج الثلاثة كلها تقع في نصف السنة الشتوي، وأن الأفراد الستة كلها تقع في نصف السنة الصيفي، ولا أعتقد أن ذلك التقسيم الدقيق جاء عفواً واتفاقاً، بل هو حاصلُ فِكْرٍ وتَدَبُّرٍ، يَتَّفِقُ كثيراً وواقعِ المُنَاحِ في جزيرة العرب، ولا سيما في مناطق الحجاز ونجد وتهامة وما اتَّصل بها.

ومثلما جعلوا سقوط «الفرغ الثاني» مَبْدَأَ لنصف السنة الشتوي، جعلوا طلوعه في الواحد والعشرين من آذار مَبْدَأَ لنصف السنة الصيفي، وأوَّلُه الربيع، وقالوا في ذلك: إذا طَلَعَ الدَّلْوُ، فالربيعُ والبَدْوُ، والصَّيْفُ بعد الشَّتو^(٢)، وكانوا يُسَمُّونَ منزليَّ الفرغ الأول والثاني باسمِ الدَّلْوِ. وكان شهرُ رَجَبٍ من شهور الربيع وقتنَدٍ، فكان أوَّلُه يقعُ في الواحد والعشرين من آذار (مارس)، وكان موسماً ديتياً حُرِّمَت أيامُه، وموسماً للتبدي والترُّع، يخرجون فيه إلى البوادي، لاجتماع الكمأة ومُبَكَّرِ الثمار.

وفي الوقت نفسه عَدُّوا سقوط «الفرغ الأول» في نحو السابع من أيلول (سبتمبر) إزهاصاً للوَسْمِ^(٣)، أي مُقَدِّمةً للخريف، وإيداناً به، وبموسم التبدي الأول. ويُعَدُّ طلوعُ «الصَّرْفَةِ» في نحو السابع من شهر أيلول أيضاً،

(١) أخبار مكة: ١/١٨٣، والمفصل: ٤٥٩/٨.

(٢) عجائب المخلوقات: ٨٤، والأزمنة والأنواء: ١٥١ - ١٥٢، وانظر قولَ بشر بن أبي خازم:

جاءت له الدَّلْوُ والشُّمْرَى ونَوَّلهما بكلُّ أشحَمَ داني الوَذْقِ مُرْتَجِفٍ

والأشحَمَ: الأسود، والوَذْقُ: المطر، والمرتجِفُ: المتحرك والمضطرب (الديوان: ١٥٧).

(٣) لسان العرب: ٧/٤٤ (رهص).

إرهاصاً للموسم نفسه، بدليل قولهم: إذا طَلَعَتِ الصَّرْفَةُ، اختال كلُّ ذي حِرْفَةٍ، وامْتِيزَ عن المياه زُلْفَةٌ^(١)... ومعناه أن الشتاء أَرَفَ وقته، فطفِقَ كلُّ صاحب حرفةٍ يحتال فيما يُعِدُّهُ للشتاء، وابتدأ الناسُ بالابتعاد عن مياههم الثابتة، للشروع في موسم الترتُّع أو التبدِّي، وهو ما يسمونه الربيع الأول.



صفوة القول، فيما قدَّمته عن دلالة شهور العرب على حقيقة مواقعها من الأزمنة الطبيعية، وما حَقَّقْتُهُ بعدئذٍ في مذهبهم إلى قسمة الفصول الطبيعية مع ما يتفق وترتيب شهورهم، أنَّ سنتهم كانت شمسية^(٢)، تعتمد حركة منازل القمر في حسابها، وإن كانت شهورهم منوطة بالأهلة في افتتاحها، لأن القمر أكثر وضوحاً في الرؤية، وهو ما جعلها محكومةً بالدوران من أجل ذلك، ولكنهم كانوا يُبَيِّنُونَهَا بالكَبْسِ، أو النَّسِيءِ، كلَّ سنتين، أو ثلاثٍ، مرةً، فتظلُّ ضمن حدود الأزمنة التي حُدَّتْ فيها، والشهور التي تُقَابِلُهَا من سنة الشمس. وإذا قَرَضْنَا أن أوَّلَ شهر المحَرَّم (صفر الأول)، كان يقع عند ابتداء الخريف من سنة العرب، في نحو العشرين من أيلول، فهو مُطَابِقٌ لما كان عليه عند السريانيين، فالأول من تشرين الأول كان يقع يوم الاعتدال الخريفي^(٣)، في الزمَنِ نَفْسِهِ أيضاً، ومن شأن ذلك أن يجعل الأوَّلَ من المُحَرَّم يُقَابِلُ الأوَّلَ من تشرين الأول، وإذا اُفترقا سنةً، عاد الكَبْسُ بهما بعدها إلى المقابلة من جديد، وفقاً لما يقتضيه التقديم والتأخير، وإحكام

(١) الأزمنة والأنواء: ١٧٧.

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ١١، ٥٥ - ٥٦، والمفصل: ٥٠٦/٨.

(٣) أسماء الأشهر: ٣٩.

افتتاح الشهور بظهور الأهِلَّة. ومع اعترافي بأن الضَبْط في هذا الشأن اليومَ مستحيلٌ، لكنني سأقدم في القسم التالي من البحث مزيداً من الأدلة.



المطلب الثالث - وجوه التوافق بين التقويمين العربي والشمسي:

هنالك إشارات وقعت عليها خلال البحث، فحفظتها، لِعرضها ودَرسها في هذا الموضع، مُتَوَخِّياً أن تكون أدلةً إضافية، على مُوافقة شُهور العرب شُهور السريان، في ترتيبها، ومَوَاقِعها من الأزمنة، ودَلالاتها على تَقَلُّب الطبيعة، فضلاً عن المواسم الثابتة في العبادة والزراعة والتجارة.

١ - التوافق في تحريم نيسان ورجب، ثم في تشرين الأول وصفر الأول:

لاحظتُ مثلاً أن نصفَ السنة الصيفيَّ عند العرب، يبدأ بشهر رَجَب، وهو شهرٌ مُحَرَّمٌ، يأتي في أول الربيع، وقد بلغ من حُرْمَتِهِ أنه كان يُسَمَّى شهرَ الله الأصمِّ. وأن نصفَ السنة الشتويَّ، يبدأ بشهر صَفَرِ الأول، وهو مُحَرَّمٌ أيضاً، ويأتي في أول السنة، وبلغَ من حُرْمَتِهِ كذلك أنه كان يُسَمَّى شهرَ الله المحرَّم، حتى غلب عليه اسمُ المحرَّم مُجَرَّداً.

ثم نظرتُ فوجدتُ أن العرب لم ينفردوا في تحريم هذين الشهرين وتقديسهما، فالسُومَرِيُّونَ والبابليُّونَ والسريانيُّونَ والعبريُّونَ والآرامِيُّونَ كان لِسَتِّهِم رَاسَان، الأوَّلُ دينيٌّ يقعُ في شهر تَيْسَانَ (أبريل)، والثاني دُنيويٌّ يقعُ في شهر تشرين الأول (أكتوبر) وكلاهما كان مُقدَّساً، ومُكْرَساً على نحو ما للنسك والتعبُّد، كما في شهري رجب والمحرَّم (صفر الأول).

فأمَّا تَيْسَانُ (أبريل)، فيبدو أن معظم الأمم القديمة كانت تبتدئ به

سَنَتَهَا^(١)، لأن الحياة بِخُضْرَتِهَا وأنوارها وزهرها تعودُ فيه إلى الأرض من جديد. وكان السومريُّون يُسمُّونه الشهرَ الأوَّل، وكان عندهم مُقدَّساً، فغلب عليه اسمُ شهرِ المَعْبَدِ أو المَزارِ المُقدَّس، فلما أخذه البابليون عنهم، جعلوا إسمه: وَزَخ رَبُّوتِي، أي شهرِ الربِّ العظيم، أو كبيرِ الآلهة، ثم سَمَّوه بعد ذلك: نَيْسَان، أي البدءَ والتحَرُّك، ونقله عنهم السريانيُّون والعبريُّون والآرامِيُّون بالاسم نفسه، وظلَّ مُقدَّساً عندهم جميعاً، وكان أوَّلُه وقتنِذِ يومِ الاعتدال الربيعي، في الواحد والعشرين من آذار (مارس). غير أن اليهود لَمَّا رجعوا من مَنَفَاهُم في بابل، جعلوا إسمه: أَيْيب، ويُقابله في العربية أَبُّ، بمعنى الربيع والزهر أو السنابل^(٢).

واعتقدُ أن العرب في الجاهلية الأولى كانوا على المذهب نفسه، يتدنُّون سَنَتَهُم بشهرِ رجب المحَرَّم، وربما كان قولُه عليه السلام في تعيين موضعِ رجب: بين جُمادَى وشعبان، بياناً لهذا الأمر، لأنهم كانوا إذ ذاك، لِعِلَّةِ الكُفْس، يُؤَخِّرونه، فيتحوَّلُ عن مَوْضِعِهِ الذي يختصُّ به^(٣)، وذلك قبل أن يُنْقَلَ رأسُ السنة عند تلك الأُمَم إلى فصل الخريف، وَيَغْدُوَ شهرُ المحَرَّم (صفر الأول) رأسَ السنة العربية، مثلما صار تشرين الأوَّل رأسَ السنة أيضاً عند البابليين والسريانيين والعبريين والآراميين، وغيرهم من الأُمَم... ولعلَّ

(١) صار نَيْسَانُ (أبريل) الشهرَ الرابع في السنة الغربية، منذ أمر شارل التاسع ملكُ فرنسا، سنة (١٥٦٤ م). بجعلِ كانون الثاني أول السنة، ولكن نيسان قبل ذلك كان أول السنة، وكان

عند بعض الرومان الشهر الثاني، وأذارُ أول السنة.

(٢) أسماء الأشهر: ٢٦، ٣٧-٣٩، ٦٦، وصبح الأعشى: ٤٦٤/٢.

(٣) لسان العرب: ٤١١/١ (رجب).

في تعليق أبي بكر الأنباري^(١)، وهو عالم مُدَقِّقٌ، على مُعلِّقِ ليبد بن ربيعة، في شرحه أَحَدَ أبياتها، تأكيداً على ما ذهبَتْ إليه في شأن رجب، إذ قال: الشهورُ الحُرُمُ أربعةٌ «أَوَّلُهَا رَجَبٌ، ثم ذو القعدة، ثم ذو الحجة، ثم المحَرَّمُ آخِرُهَا»^(٢)، وهي إشارة واضحةٌ إلى أن سنة العرب كانت تَبْتَدِيءُ أولاً بِرَجَبٍ، وأن الكَبْسَ كان يجري وراءَ جُمَادَى. وكان العَبْرِيُّونَ يكسبون، كلما اقْتَضَتِ الحاجةُ، شهراً وراءَ آذار، يُسَمُّونَهُ آذار الثاني^(٣). ومن هنا نشأ تَوَهُّمُ من زعموا أن العرب أخذوا الكَبْسَ عن العبريين، وإنما الحقيقة أن الجميع أخذوا علمهم في ذلك عن السريانيين أو الآراميين^(٤)، وربما اليونانيين.

وأما شهر تشرين فيبدو أنه صار في تطوُّرٍ لاحقٍ أوَّلَ شهور السنة عند البابليين، أو سائر من أخذ عنهم كالسريانيين والعبريين والآراميين^(٥)، وهو شهرُ الشُّرُوعِ بما يهتمُّ الناسُ في حياتهم الدنيا، من الزراعة والتجارة والامْتِيَارِ والإعداد لفصل الشتاء. وكان عند البابليين شهراً مُقَدَّساً، يكرِّسونه لعبادة الإله شمش، أي الشمس، وكان عندهم نورَ السماء والأرض، وربُّ الأربابِ جميعاً^(٦). ويُعَيِّدُ العَبْرِيُّونَ عيد رأس السنة في أول تشرين، ويصومون

(١) ابن الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم، ولد في بغداد (٢٧١ هـ)، وتلقَّى العلم عن أبيه وعدد من العلماء، وصار إماماً في اللغة والنحو والأدب، ثقةً ثباتاً صدوقاً، وكان سريع الحفظ، جيّد القريحة. توفي سنة (٣٢٨ هـ).

(٢) شرح القصائد السبع: ٥٢١.

(٣) صبح الأعشى: ٤٢٨/٢، والمفصل: ٤٥٣/٨.

(٤) أسماء الأشهر: ٥٣.

(٥) مروج الذهب: ١٩٢/٢، وصبح الأعشى: ٤١٩/٢، ٢٤٤/١، والأزمنة والأمكنة: ١٧٢/١، ولسان العرب: ٢٣٦/١٣ (شرن)، والأزمنة والأنواء: ٥٣.

(٦) أسماء الأشهر: ٢٩ - ٤١، (وجاء في رواية أخرى ذكرها العقاد في كتابه «الله»، أن البابليين كانوا يظنون أن الأرباب تجتمع كل سنة، في يوم الاعتدال الخريفي، لِنَتَظَرُ في السماء مقادير السنة كلها، وتسجلها في لوح محفوظ لا يُمَحْوُ قبل نهاية السنة...): ٩١.

صوم الكبور في العاشر منه، ثم يُعيدون في الخامس عشر منه سبعة أيام عيد المِظلة، وآخر يوم منها يُعدُّ حجاً لهم^(١).

ومثلما سُمِّي شهرًا تشرين بذلك عند السريانيين، بمعنى الشروع والابتداء، فإن شهري صَفَر كانا يُسمَّيان في الجاهلية المتقدمة شهري ناجر^(٢)، من النَّجَر أو النَّجَار بمعنى الأصل والابتداء، وليس من النَّجَر بمعنى الحرِّ كما ذهب البعض، فهما الشهران اللذان يبتدئ بهما العام، أي أنهما أصله^(٣)... ومثلما كان الأوَّل من شهر تيسان (أبريل) يقع في يوم الاعتدال الربيعي، كان الأول من تشرين الأول (أكتوبر) يقع في يوم الاعتدال الخريفي، ولا بُدَّ أن الأول من رَجَبِ والأوَّل من صَفَر المحرَّم كانا كذلك...

كلُّ هذا التماثل، من شأنه أن يقودنا إلى الاعتراف بموافقة شهور العرب في الحجاز ونَجْدٍ وتهامة، شهور الشمس عند الشعوب الأخرى، في ترتيبها، ومواقعها من الأزمنة، فلا يُعقل أن يَشُدَّ العربُ وحدهم عن نظام اعتمدته شعوب المنطقة جميعاً، بمن فيهم الروم قبل أن تبدأ سنتهم بشهر (يناير) كانون الثاني.



(١) صبح الأعشى: ٤٦٤/٢، وأحمد بن إسحاق - تاريخ البعقوبي: ٦٦/١.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢٨٠/١، ولسان العرب: ١٩٤/٥ (نجر).

(٣) يلاحظ أن معنى كلمة أكتوبر (تشرين الأول) هو الثامن، إذ كان الشهر الثامن في التقويم الروماني القديم ابتداءً من شهر مارس (آذار)، ومعنى سبتمبر (أيلول): السابع، ونوفمبر (تشرين الثاني): التاسع، وديسمبر (كانون الأول): العاشر. ولكن التقويم الغربي قدَّم رأس السنة إلى الشتاء، ففقدت هذه الشهور معانيها الأصلية، وذلك حينما جعل (يناير) كانون الثاني أول السنة.

بني تميم، حين تقوم السوق بالمشقر^(١). وكان بنو تميم يصيرون في ذلك الوقت إلى هجر، للميرة، ولقاط الكمأة، ويأثون حصن المشقر لشهود السوق... ويقال إنهم لما دخلوا الحصن، غدر بهم، فقتل بعضهم، وأسرو الباقيون. ثم تكلم هوزة بن علي في مئة من الأسرى، فأطلقوا يوم الفصح^(٢). وفي ذلك قال الأعشى، يمدح هوزة:

سائِلُ تَمِيمًا بِهِ أَيَّامَ صَفَقَتِهِمْ لَمَّا أَتَوْهُ أَسَارَى كُلُّهُمْ صَرَعا
فَفَكَ عَنْ مِئَةِ مِنْهُمْ إِسَارُهُمْ فأصبحوا كُلُّهُمْ مِنْ غُلَبِ خُلَعَا
بِهِمْ تَقَرَّبَ يَوْمَ الْفِضْحِ ضَاجِبَةً يَرْجُو الْإِلَهَ بِمَا أَسَدَى وَمَا صَنَعَا^(٣)

وتكاد روايات أهل الأخبار تُطَبِّقُ على أن موسم سوق المشقر كان يقوم أول يوم من جمادى الآخرة، إلى آخر الشهر^(٤)، وقد أشرنا في مطلع هذا الباب إلى أن يوم الفصح مُتَنَقِّلٌ بين أواخر آذار وأواخر نيسان، فإذا أضفنا إلى ذلك أن موسم لقاط الكمأة يقع غالباً بعدما يطلع منزل «سعد السعود»، في الثاني عشر من شباط^(٥)، ويستمر حتى أواخر نيسان^(٦)، وأن إطلاق الأسرى، كان غالباً بُعيد انقضاء موسم السوق، تبيّن لنا صواب ما ذهبنا إليه من وقوع جمادى الآخرة، أو مُعَظَمُهُ في شهر آذار.

* * *

(١) الأغاني: ٢٣٩/١٧.

(٢) تاريخ الطبري: ١٧١/٢، وابن الأثير - الكامل: ٦٢١/١.

(٣) ديوان الأعشى: ١١١ - ١١٢.

(٤) محمد بن حبيب - المحرر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ١٦٢/٢.

(٥) الأزمنة والأنواء: ١٤٦ - ١٤٧، وعجائب المخلوقات: ٨٣، وصبح الأعشى: ٣٨٠/٢.

(٦) البدو والبادية: ٦٩.

٤ - توافق وقوع عاشوراء في العاشر من المحرم والعاشر من تشرين الأول :

ثمة دليل آخر، لعلّه القول الفصل في بطلان كل الأقوال، التي زعمت بأن شهرَ العرب، لَمَّا سُمِّيَتْ ورُتِبَتْ، لم يكن العربُ يَدُرُونَ أنها ستدورُ في الفصول، وتَفْقِدُ بالتالي معانيها، ودَلالاتِها على الأزمنة التي وُضِعَتْ لها... فقد حَقَّقَ ابنُ تيمِّية من طُرُق كثيرةٍ مختلفةٍ، أن أهل الجاهلية كانوا يصومون يومَ عاشوراء، وأن النبيَّ عليه السلام كان يصومه، ولَمَّا قَدِمَ المدينةَ صامَهُ، وأَمَرَ بِصَوْمِهِ، فلَمَّا فُرِضَ صَوْمُ شهرِ رمضان، قال: إن عاشوراءَ يومٌ من أيام الله، فمن شاء صامَهُ، ومن شاء تَرَكَه^(١). وهذا نفسه ما جاء في مختلف مَوَارد الفقه والتاريخ^(٢). . . وأضاف الأزرقِيُّ أن النبيَّ عليه السلام خطب الناسَ يومَ عاشوراء فقال: هذا يومُ عاشوراء، يومٌ تنقضي فيه السنة، وتُسْتَرُ الكعبةُ، وتُرْفَعُ الأعمال، ولم يُكْتَبْ عليكم صيامُهُ، وأنا صائمٌ، فمن أحبَّ منكم أن يصومَ فَلْيَفْعَلْ^(٣). وكانت الكعبةُ فيما مضى قبل الإسلام تُكْسَى يومَ عاشوراء، وقد ذهب آخرُ الحاجِّ، فكانوا يُعَلِّقُونَ عليها حَيْثُذِ الْأَزَرَ من الأنسجة الفاخرة^(٤). ويومُ عاشوراء هو يومُ العاشر من شهرِ المحرم (صَفَر الأول)^(٥)، ذكر القزويني أنه يومٌ مُعَظَّمٌ في جميع المِلَل^(٦). ولَمَّا قَدِمَ المسلمون المدينة وجدوا اليهود يصومون اليومَ عَيْنَهُ، في العاشر من شهر

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ٣١/٣، و ٥١/٥، والألم للشافعي: ٢٦/٢، والكامل: ١١٥/٢، وسيد سابق - فقه السنة: ٤٥١/١ (دار الكتاب العربي - بيروت).

(٣) أخبار مكة: ٢٥٢/١.

(٤) المرجع نفسه: ٢٥٢/١ - ٢٥٣، وتاريخ الطبري: ٣٩٠/٢.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٥.

(٦) عجائب المخلوقات: ١٠٩.

تشري (تشرين الأول)^(١)، اعتقاداً بأن الله نَجَّى فيه موسى وقومه، وأغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله^(٢). وكانوا يسمُّونه يومَ عَشُور، أو العَاشُور، ويقولون: إن الله فرض عليهم صومته، ومُدَّتْهُ خمسٌ وعشرون ساعة، تبدأ من اليوم التاسع، قبل غروب الشمس بنصف ساعة، وتنتهي بعد غروبها من اليوم العاشر بنصف ساعة^(٣)، وكانوا يتخذونه عيداً، ويُعظِّمونهُ كثيراً^(٤)، وقيل إنه يُدعى يومَ الكفَّارة أيضاً^(٥). وكان أهلُ خَيْبَر يصومون أيضاً «يومَ عاشوراء» ويتخذونه عيداً، ويلبسُونَ نساءَهُم فيه حُلِيَّهم وشاراتهم^(٦)، ويُقيمون فيه موسماً تجارياً واجتماعياً عامّاً، بحَضَنِ «نِطَاق»، يظلُّ منعقداً إلى آخر الشهر. وكان لأهل اليمامة في نجد موسمٌ كبيرٌ ينعقدُ كلَّ سنةٍ بمدينة «حَجْر»، في العاشر من المحَرَّم إلى آخر الشهر^(٧)، وهو الميقاتُ نفسُه المُقدَّر لموسم نِطَاق.

على أن هذا التوافق في صيام اليوم نفسه، بين اليهود والعرب في الجاهلية، ثم في الإسلام، يجب أن لا يُفهم أنه تأثرٌ من العرب والمسلمين باليهود، فدعوى اليهود في صيامه شيءٌ من عقيدتهم، أما عند العرب فهو كما قال رسول الله ﷺ: «يومٌ من أيام الله»^(٨)، وربما كان من سُنَنِ الحَنِيفِيَّةِ

(١) المفصل: ٤٨٢/٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧١ - ١٧٢.

(٣) المختصر في أخبار البشر: ٨٩/١، وصبح الأعشى: ٤٦٣/٢ - ٤٦٤.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٢.

(٥) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية: ٤٧.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٢.

(٧) المحرر: ٢٦٨.

(٨) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٣ - ١٧٤.

وقد تبيّن لنا من مُتابعة أخبارهم، أنهم كانوا يعتدّون في الفصول الطبيعية بدَوْرَةِ منازل القمر، ومَطالِع النجوم ومَساقِطِها، وفي حساب الشهور بدورة القمر، أي أنهم كانوا يتبعون تقويماً شمسياً قمرياً.

كما تبيّن لنا من البحث العميق في أسماء شهورهم، ومعانيها، ومواقعها من طبائع فصولهم، أنها كانت شهوراً ثابتة في أزمنة معينة، وإن تحرّكت قليلاً أحياناً بِقِصَرِ دورة القمر، ذلك أن فقهاءهم، كما سنرى في كلامنا على النسيء، كانوا يعملون على إعادتها إلى مواقعها وتثبيتها بالكبس، وهو ما أكّده لنا ما وجدناه من التماثل بين عرب الحجاز وجيرانهم في موعد افتتاح السنة، وترتيب الشهور، وتحريم بعضها... وإن من شأن ذلك كله أن يحملنا على القول بأن مواسم العرب الدينيّة والتجاريّة، والاجتماعيّة، كانت في الجاهلية تقوم في أوقات ثابتة من الأزمنة الطبيعية.



سنة تسع للهجرة، فتوقف العمل به ابتداءً من السنة العاشرة، وهي التي حجَّ فيها الرسول عليه الصلاة والسلام حجة الوداع. ومعنى ذلك أن موسم الحجَّ سنة تسع للهجرة، أُقيم في التاسع من ذي الحجة، الموافق للأول من شهر آب سنة (٦٣١ م)، مُتقدِّماً موقعه من تقويم الشمس نحو شهر، فكُبِسَ بتلك السنة شهرٌ وراءَ ذي الحجة، فصارت به ثلاثة عشر شهراً، وكانت السنة التاسعة عشرة والأخيرة في آخر دَوْرٍ للنسبيء عند العرب، ابتداءً بعدها حسابُ القمر يستوي مع حساب الشمس، ولَمَّا كانت سنة عشر للهجرة، كان الأوَّل من المحرم (صفر الأول) قد عاد إلى موقعه في الأوَّل من تشرين الأول وهو ما كانت تُفتتحُ به سنة الشمس عند أهل الشام والعراق وغيرهم^(١). وأُقيم موسمُ الحجِّ وقتئذٍ في التاسع من ذي الحجة، الموافق للثلاثين من شهر آب سنة (٦٣٢ م). ثم تُوفي الرسول عليه الصلاة والسلام سنة إحدى عشرة للهجرة، يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، الموافق للثلاثين من شهر تشرين الثاني سنة (٦٣٣ م)، وقد تقدَّمت سنة القمر على سنة الشمس أحدَ عشر يوماً.

أما موسمُ سوق عكاظ، وكان يُقام عادةً في الأول من ذي القعدة، فأعتقد أنه أُقيم سنة عشر للهجرة في مواعده الطبيعي من سنة الشمس، نحو الثالث والعشرين من شهر تموز (يوليو). وكان تنقُّله، باعتماده على الهلال، ربما قدَّم موقعه من سنة الشمس حتى الثالث والعشرين من شهر حزيران، لكنَّ النسبيء ما يلبث حتى يُعيدَه إلى موقعه الأصلي. فلما بطل النسبيء، صار مواعده دائراً في كل الأزمنة الطبيعية، فلا يعود إلى قريبٍ ممَّا كان عليه في الأصل إلا بعد نحو ثلاثٍ وثلاثين سنة... ولعلَّ هذا كان سبباً رئيساً في انحطاط السوق وخمول ذكره...

(١) انظر جدول مواقع شهور العرب من شهور السريانيين والروم.

- ٥١ - المختصر في أخبار البشر :
أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين
إسماعيل - المطبعة الحسينية المصرية -
الطبعة الأولى (١٣٢٥ هـ).
- ٥٢ - مروج الذهب ومعادن الجوهر :
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين -
دار الأندلس، بيروت (١٩٧٨ م).
- ٥٣ - مطلع النور :
عباس محمود العقاد - دار الهلال بمصر.
- ٥٤ - المعجم :
عبد الله العلايلي - المجلد الأول - دار
المعجم العربي - بيروت.
- ٥٥ - معجم البلدان :
أبو عبد الله، شهاب الدين ياقوت بن
عبد الله الحموي - دار صادر - بيروت
(١٩٧٧ م).
- ٥٦ - معجم تاج العروس من جواهر القاموس :
محمد مرتضى الزبيدي - طبعة مصر
بالمطبعة الخيرية (١٣٠٦ هـ)، وطبعة
الكويت.
- ٥٧ - معجم محيط المحيط :
المعلم بطرس البستاني - مكتبة لبنان،
بيروت (١٩٧٧ م).
- ٥٨ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام :
د. جواد علي - دار العلم للملايين في
بيروت ومكتبة النهضة ببغداد (١٩٧٨ م).
- ٥٩ - موسوعة تاريخ العالم :
وليم لانجر - الترجمة العربية - مكتبة
النهضة بمصر.

* * *

